دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	علم اللغة النفسي عند قدامي اللغويين العرب
المصدر:	مجلة العربية للناطقين بغيرها - معهد اللغة العربية بجامعة أفريقيا العالمية - السودان
المؤلف الرئيسي:	جاسم، جاسم بن على
المجلد/العدد:	ع7
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2009
الشهر:	يناير
الصفحات:	29 - 95
رقم MD:	790869
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	علم النفس اللغوي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/790869

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

علم اللغة النفسي عند قدامى اللغويين العرب

إعداد : الدكتور جاسم علي جاسم (*)

تمهيد

يعد علم اللغة النفسي (Psycholinguistics) واحداً من أهم فروع علم اللغة التطبيقي (Applied Linguistics)؛ الذي يهتم بدراسة اللغة واكتسابها واستعمالها وفهمها. وهو من الموضوعات اللغوية المهمة جداً، وقد بدأ الاهتمام به بشكل كبير - في أمريكا - في الخمسينيات من القرن الماضي؛ عندما أفصح تشومسكي عن آرائه النقدية حول طبيعة اللغة ووظيفتها وأساليب اكتسابها، ومنهج دراستها، وتحليلها في كتابه المشهور: الأبنية النحوية[1]؛ وكذلك من خلال هجومه العنيف على البنيوية والبنيويين والسلوكية والسلوكيين في علم النفس - وخاصة عالم النفس السلوكي سكنر - الذين يهتمون بظاهر اللغة لا بعمقها، ويفسرون اكتسابها تفسيراً آلياً، ولم يؤكدوا على الجانب الإبداعي الخلاق في اكتسابها واستعمالها[2].

(*) الأستاذ المشارك الدكتور جاسم علي جاسم قسم اللغة العربية كلية التربية والعلوم الإنسانية جامعة طيبة سابقاً المدينة المنورة السعودية

1- Chomsky, N. Syntactic Structures. The Hague: Mouton, 1957.

2- Chomsky, N. "Review of B. F. Skinner's Verbal Behavior", Language, 35, 1959.

ويهدف هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

أولاً: هل تطرق اللغويون العرب القدامى إلى موضوعات علم اللغة النفسي؟

ثانياً: هل كانت آراء العلماء العرب القدامى مؤثِّرة في علم اللغة النفسي الحديث؟

ثالثاً: بيان الأسبقية التاريخية للغويين العرب في طرح ومناقشة مسائل هذا الجانب اللغوي المهم.

ويخلص هذا البحث إلى أن العلماء العرب القدامى ناقشوا موضوعات علم اللغة النفسي بشكل دقيق. وكانت آراؤهم مؤثِّرة إلى مدى بعيد في نظريات علم اللغة النفسي الحديث بشكل عام والبنية العميقة والسطحية بشكل خاص؛ والتي تدل بشكل واضح على تأثُّر تشومسكي بنظرية النظم عند الجرجاني بطريقة غير مباشرة وذلك عن طريق الترجمة[٣]. وبذلك فقد حازوا قصب السبق في هذا المجال، وكانوا رواد هذا العلم بلا منازع.

Abstract

Psycholinguistics is considered one of the most important branches of applied linguistics which concerns itself with studying acquiring, using and understanding the language. The old Arab linguists were interested in studying its subjects in their valuable publications contrary to what some of the modern Arab linguists think who state that studying this subject began in the USA in the 1950's at the hands of Skinner and Chomsky. The aim of this research is to show that old Arab linguists were predecessors in studying several topics of psycholinguistics and had strong influence on the ideas and opinions of Western linguists.

٣- للمزيد، قارن مع:

[3]- Abu Deep, Kamal, Al-Jurjani's Theory of Poetic Imagery and its Background, Ph.D. Thesis, Oxford University, England, 1971.

المقدمة

يعالج علم اللغة النفسي موضوعات عديدة ومهمة: منها: الفكر، وتوقيف اللغة واصطلاحها، واكتساب اللغة (ونظرياتها والبنية العميقة والسطحية)، ولغة الحيوانات، ولغة الإشارة، وأمراض الكلام، وغير ذلك من الموضوعات(٤).

ويزعم العصيلي(٥) أن علم اللغة النفسي يعد من العلوم الحديثة التي لم تتضح معالمها، ولم تستقل استقلالاً تاماً إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، وذلك إثر ظهور الاتجاه المعرفي الفطري في علم اللغة الذي يعد ثمرة الالتقاء الحقيقي بين علم اللغة وعلم النفس إحلالاً للاتجاه العقلاني المعرفي النفسي في النظرة إلى طبيعة اللغة، وأساليب اكتسابها وتعلمها وتعليمها – محل الاتجاه السلوكي النفسي المرتبط بعلم اللغة البنيوي.

ويشير العصيلي في الهامش رقم ٢ قائلاً(٦): الاهتمام بالناحية النفسية في دراسة اللغة قديم جداً، وتراثنا العربي الإسلامي غني بالإشارات إلى أهمية هذه العلاقة. وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ظهر المصطلح التقليدي لهذه العلاقة، المعروف بـ: علم نفس اللغة، عند بعض العلماء أمثال هيرمان بول وغيره... بينما يرى آخرون أن مصطلح علم نفس اللغة "سيكولوجية اللغة" هو تعبير استخدمه إزجو دووسيبوك أول مرة سنة ١٩٥٠م، ويدرس اللغة في استخداماتها اليومية، ويفيد من طرائق تدريسها، وسيكولوجية تعلمها، ومدارس

4- انظر علم اللغة النفسي، العصيلي، عبدالعزيز بن إبراهيم، الطبعة الأولى، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

- علم النفس اللغوي، السيد، محمود أحمد، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٥-١٩٩٦م.

- علم النفس اللغوي، عطية، نوال محمد، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م.

5- علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع سابق، ص ٢٥.

6 - علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع سابق، ص ٢٥.

علم النفس المختلفة في علاج عيوب النطق، وتعليم القراءة والكتابة إن كان في اللغة الأم أو اللغات الأجنبية(٧).

ويرى الباحث أيضاً أن علم اللغة النفسي عند اللغويين العرب القدامى لم يكن مجرد إشارات فحسب، بل هم من أسسوا هذا العلم وخاضوا غماره وسبروا أغواره. وإن كتاباتهم في هذا الميدان أصَّلت وأسَّست لنظرية لغوية نفسية رائدة، وإن لم تكن مشروحة في مصنف واحد تحت هذا الاسم وإنما تطرقوا إليها كل من جهته وحسب اختصاصه واهتمامه. فالجاحظ وابن سيده وابن خلدون وابن فارس مثلاً تحدثوا تقريباً عن معظم مسائل وموضوعات هذا العلم. وما على العالِم إلا أن يدقق النظر فيما يقرأه وأن يجمع ما كتبه القدماء ويخرجه إلى النور، ولا ينكر عليهم هذه المعارف والجهود الأصيلة والقيِّمة التي بذلوها في هذا المجال.

تعريف علم اللغة النفسي

يعرفه جاك ريتشاردز وغيره(٨):بأنه العلم الذي يهتم بدراسة العمليات العقلية التي تتم في أثناء استعمال الإنسان للغة فهماً وإنتاجاً، كما يهتم باكتساب اللغة نفسها.

ويعرفه العصيلي(٩) بأنه: علم يهتم بدراسة السلوك اللغوي للإنسان، والعمليات النفسية العقلية المعرفية التي تحدث في أثناء اللغة واستعمالها، التي بها يكتسب الإنسان اللغة.

---

7 – علم النفس اللغوي، السيد، مرجع سابق، ص ١٢.

8 Richards, J.; Platt, J.; and Platt, H. Longman Dictionary of Language & Teaching and Applied Linguistics, 2nd edition, Essex, UK: Longman. 1992. P.300.

الترجمة العربية نقلاً عن: علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع سابق، ص ٢٦.

9– علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع سابق، ص ٢٧.

موضوع علم اللغة النفسي

إن موضوع علم اللغة النفسي هو اللغة نفسها، أي: دراسة اللغة والبحث فيها وصفاً وتحليلاً واكتساباً وتعلماً وتعليماً. فموضوع علم اللغة النفسي إذن هو نفسه موضوع علم اللغة عند اللغويين المعرفيين الفطريين (١٠).

أهداف علم اللغة النفسي ومجالاته

يذكر العصيلي(١١): أن أهم أهداف علم اللغة النفسي هو الإجابة عن السؤال التالي: كيف يكتسب الإنسان اللغة، وكيف يستعملها؟ ويتفرع عن هذا السؤال أسئلة أخرى يسعى علم اللغة النفسي إلى الإجابة عنها مثل: كيف يفهم الإنسان الكلام وكيف ينتجه؟ وما وظيفة القواعد العقلية في العمليات التواصلية؟ وما الآليات العصبية التي تتحكم في ذلك؟ وما المشكلات التي تؤثر في اكتساب اللغة وفهمها واستعمالها؟ لذا فإن أهم مجالات هذا العلم وموضوعاته يمكن إيجازها في النقاط الآتية:

١/ فهم اللغة، سواء أكانت منطوقة أم مكتوبة.

٢/ استعمال اللغة، أو إصدار الكلام.

٣/ اكتساب اللغة: سواء أكانت لغة أماً أم لغة ثانية أو أجنبية.

٤/ المشكلات والاضطرابات اللغوية: كعيوب النطق الخلقية، أو العيوب اللغوية التي تحدث نتيجة إصابة عضو من أعضاء النطق أو السمع أو البصر أو ما يرتبط بها من أعصاب أو أجهزة في مراكز اللغة في الدماغ.

الثنائية اللغوية والتعددية اللغوية، ودراسة ما يتعلق بهما من مسائل ومشكلات في اكتساب اللغات الأم أو الثانية.

10- علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع سابق، ص ٣٤.

11 - علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع سابق، ص ٣٥-٣٧.

٦/ لغة الإشارة عند الصم من حيث الاستعمال والاكتساب والتقعيد وما يتعلق بها من قضايا ومشكلات لغوية ونفسية واجتماعية.

وإليكم الآن عرض ومناقشة موضوعات هذا العلم عند اللغويين العرب القدماء بشكل مفصّل.

أولاً: الفكر واللغة

يقول ابن خلدون(١٢): ميَّز الله البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدأ كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه. فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها، بما ركّب الله فيها من الحواس الظاهرة: السمع والبصر والشم والذوق واللمس. ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج عن ذاته الفكر الذي وراء حسه، وذلك بقوى جعلت له في بطون دماغه، ينتزع بها صور المحسوسات، ويجول بذهنه فيها، فيجرد منها صوراً أخرى. والفكر هو التصرف في تلك الصور وراء الحس، وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب، وهو معنى الأفئدة في قوله تعالى: " { وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }النحل٧٨ "(١٣). والأفئدة جمع فؤاد، وهو هنا الفكر. وهو على مراتب:

(الأولى) تعقل الأمور المرتبة في الخارج ترتيباً طبيعياً أو وضعياً ليقصد إيقاعها بقدرته. وهذا الفكر أكثره تصورات. وهو العقل التمييزي الذي يحصّل منافعه ومعاشه ويدفع مضاره.

---

12 – مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الثالثة، لا تاريخ. ج٣، ص١٠٠٨–١٠١٠. وللمزيد عن علاقة اللغة بالفكر، انظر

– أسس تعلم اللغة وتعليمها، براون، دوجلاس، ترجمة عبده الراجحي وعلي شعبان. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٤م. ص ٤٨–٤٩؛ ١٦٥–١٦٨.

13 – النحل٧٨.

(الثانية) الفكر الذي يفيد الآراء والآداب في معاملة أبناء جنسه وسياستهم. وأكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شيئاً فشيئاً إلى أن تتم الفائدة منها. وهذا هو المسمى بالعقل التجريبي.

(الثالثة) الفكر الذي يفيد العلم أو الظن بمطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل. فهذا هو العقل النظري. وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً على شروط خاصة، فتفيد معلوماً آخر من جنسها في التصور والتصديق، ثم ينتظم مع غيره فيفيد علوماً أُخَر كذلك. وغاية إفادته تصور الوجود على ما هو عليه بأجناسه وفصوله وأسبابه وعلله، فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ويصير عقلاً محضاً ونفساً مدركة، وهو معنى الحقيقة الإنسانية.

من خلال هذا الشرح لمفهوم الفكر واللغة عند ابن خلدون؛ نلحظ تأثُّر تشومسكي بهذه الفكرة وذلك من خلال نظرته الخاصة إلى اللغة. ولكي نبرهن على صحة هذا الرأي هاكم الأدلة التالية:

أولاً: يقول العصيلي(١٤) نقلاً عن تشومسكي: إن اللغة الإنسانية هي المفتاح لمعرفة عقل الإنسان وتفكيره. فالإنسان يختلف عن الحيوان بقدرته على التفكير والذكاء، وبقدرته على اللغة، التي هي أهم الجوانب الحيوية في نشاط الإنسان. وليس من المعقول أن تكون اللغة بهذه الأهمية ثم تتحول إلى مجرد تراكيب شكلية مجردة من المعنى، كما يرى الوصفيون والسلوكيون.

ثانياً: لقد تأثر تشومسكي بآراء المدرسة الفلسفية العقلانية التي سادت القرن السابع عشر والتي كان الفيلسوف ديكارت من أشهر أعلامها. ولذلك فقد كانت آراؤه عن طبيعة اللغة عميقة ومناقضة تماماً للسطحية التي تميزت

14- النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية، العصيلي، عبدالعزيز بن إبراهيم، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مطابع التقنية للأوفست، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م. ص ٧٣. وانظر أدناه؛ النظرية المعرفية الفطرية.

بها آراء أسلافه المباشرين في النصف الأول من القرن الحالي. وكذلك تأثره بهمبولت الذي ربط اللغة بالعقل(١٥).

ثالثاً: إن فون همبولت تأثر بالمستعرب سَلْفستر دي ساسي الذي كان ضليعاً بالعربية؛ حيث يقول الموسى(١٦): إن المستعرب سلفستر دي ساسي "كان متضلعا... في علوم اللغة العربية". و"ما أنتجه من الدراسات في نحو العربية وما ترجمه إلى الفرنسية من كتب النحو والتجويد القديمة يدل بوضوح على أنه أدرك إدراكاً لا بأس به مفاهيم ومناهج النحاة العرب". ودي ساسي "هو الذي كوّن... فون هومبولت" وغيره. "وأهم شيء اكتسبه هؤلاء من دروس دي ساسي هو اطلاعهم من خلال دراستهم للعربية واللغات السامية الأخرى على المفاهيم اللغوية والنحوية العربية التي كانت تنقصهم في ثقافتهم الفيلولوجية التقليدية، وكذلك كان الأمر بالنسبة للنحو والصوتيات". وكان دي ساسي "متشبعاً بمبادئ النحو الوصفي التعليلي. وهو يمثل في زمانه ذلك المذهب الذي تناقله عدد من العلماء منذ القرن الثالث عشر من طريق جيمس هارس وسنكتيوس الإسباني عن النحاة العرب مباشرة أو عن لغويي السكولاستيك عن فلاسفة العرب". "وتلا دي ساسي في العمل بهذه المبادئ تلميذه فون هومبولت".

ثانياً: اللغة توقيف أم اصطلاح

تحدث اللغويون العرب القدامى عن ظاهرة اللغة وقالوا: هل هي توقيف ووحي وإلهام أم هي اصطلاح وتواضع وتواطؤ؟ ومن بين هؤلاء الأعلام الذين

---

15 – علم النفس اللغوي، السيد، مرجع سابق، ص ٥٩ وما بعدها. وللمزيد انظر؛

– النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية، العصيلي، مرجع سابق، ص ٧٣.

– نظرية التقدير عند النحاة العرب المسلمين وأثرها في نحاة الغرب المعاصرين تشومسكي مجدد النحو العربي: جاسم، جاسم علي و جاسم، زيدان علي– مقال مخطوط.

16– نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث: الموسى، نهاد، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لا طبعة، ١٩٨٠م. ص ٥٤–٥٥. وانظر أيضاً

– تأثير الخليل بن أحمد الفراهيدي والجرجاني في نظرية تشومسكي، جاسم، جاسم علي، مخطوط.

بحثوا في هذه الظاهرة وأولوها عناية كبيرة في مؤلفاتهم القيمة الزمخشري(١٧)؛ إذ يقول في تفسير قوله تعالى: " تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ "(١٨). فقوله عز وجل "مما علمكم الله" إن هذا العلم إلهام من الله ومكتسب بالفعل، أو مما عرّفكم أن تعلموه.

ويشرح ابن فارس(١٩) هذه الظاهرة بقوله: إن لغة العرب توقيف. ودليل ذلك قوله جلّ ثناؤه: " وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا "(٢٠). فكان ابن عباس يقول: علّمه الأسماء كلها، وهي هذه التي يتعارفها الناس من: دابة، وأرض، وسهل، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. والذي نذهب إليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس. فإن قال قائل: لوكان ذلك كما تذهب إليه لقال: "ثم عرضَهُنَّ" أو عرضها". فلما قال: "عرضَهم" عُلِم أن ذلك لأعيان بني آدم، أو الملائكة؛ لأن موضوع الكناية في كلام العرب أن يقال لما يعقل: "عرضهم"، ولما لا يعقل: "عرضها"، أو "عرضهنّ".

ويذهب ابن جني(٢١) في الخصائص إلى هذا الرأي كذلك؛ حيث يقول: "فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه، وأنها وحي".

17- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر، تحقيق وتعليق ودراسة:عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨م. ج٢، ص ١٩٧ وما بعدها.

18- سورة المائدة: ٤/٥.

19- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، أبوالحسين أحمد ابن فارس بن زكريا، علق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م. ص١٣.

20- سورة البقرة: ٣١/٢.

21- الخصائص، ابن جني، أبو الفتح عثمان، تحقيق: محمد علي النجار، الجزء الأول، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٥٢م. ج١، ص٤٧.

وأما الذين يرون أنها اصطلاح وتواضع فمنهم: الخفاجي(٢٢)حيث يقول:

والصحيح أن أصل اللغات مواضعة، وليس بتوقيف، وإنما أوجب ذلك لأن توقيفه تعالى يفتقر إلى الاضطرار إلى قصده لأنه إن أحدث كلاماً لم يعلم أنه قد أراد بعض المسميات دون بعض، ولو اقترن بهذا الكلام إشارة إلى مسمى دون غيره، لأنا لا نعلم توجه الكلام إلى ما توجهت الإشارة إليه، وإنما يعلم ذلك بعضنا من بعض بالاضطرار إلى قصده، وتخصص الإشارة بجهة المشار إليه لا يعلم بها هل الاسم للجسم، أو للونه، أو لغير ذلك من أحواله، وأما اذا تقدمت المواضعة بيننا، وخاطبنا القديم تعالى بها، علمنا مراده، لمطابقة تلك اللغة، وقد يجوز فيما يعدُّ أصل اللغات أن يكون توقيفاً منه تعالى، لتقدم لغة عن التوْقيف يفهم بها المقصود، وقد حمل أهل العلم قوله تعالى: "وعلَّم آدم الأسماء كلها"(٢٣)؛ على مواضعة تقدمت بين آدم عليه السلام وبين الملائكة على لغة سالفة ممن خاطبه الله تعالى على تلك اللغة، وعلّمه الأسماء، ولولا تقدم لغة لم يفهم عنه عزّ اسمه.

ولقد عرض السيوطي(٢٤) حجج الفريقين بإسهاب. وعرض رأيه من خلال ذلك في هذه القضية. فمن أراد الزيادة فليعد إلى ذلك المصدر.

وهذه القضية هي من القضايا التي طُرِحَت ونُوقِشَت في علم اللغة النفسي الحديث كذلك. يقول السيد(٢٥) في هذا الصدد: إن من مسائل علم

22- سر الفصاحة، الخفاجي، أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الحلبي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م. ص٤٨-٤٩.

23- سورة البقرة ٣١/٢.

24- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، شرحه وضبطه وصححه: محمد أحمد جاد المولى وغيره، لا طبعة، بيروت: دار الجيل و دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لا تاريخ. ج١، ص٨-٢٠.

25- علم النفس اللغوي، السيد، مرجع سابق، ص ٨.

اللغة النفسي البحث عن أصل اللغة: هل هي توقيف أم اصطلاح؟ ويستشهد بتشارلز هوكت الأمريكي الذي يقول: حاول دراسة خصائص لغة الإنسان فألفى نتيجة أبحاثه أن أهم سمات هذه اللغة أنها اصطلاحية أو تواضعية بمعنى أن الناس هم الذين يتفقون فيما بينهم على تسمية الأشياء ووضع المصطلحات اللغوية، وأن مفردات اللغة الإنسانية تشير إلى أشياء محسوسة في عالم الواقع، وإلى الأفعال التي يؤديها الإنسان أو غيره من المخلوقات كما أنها تعبر عن الأفكار الذهنية المجردة، وأن الخلف يتوارثها عن السلف، وتشير إلى أشياء وأحداث بعيدة عن المتكلم زماناً ومكاناً، إضافة إلى أن لغة البشر تتسم بالقدرة على الخلق والابتكار.

ثالثاً: اكتساب اللغة

من الظواهر المهمة والتي يهتم بها علم اللغة النفسي الحديث اهتماماً بالغاً في القرن العشرين ظاهرة اكتساب اللغة (الأم والأجنبية/أو الثانية)، والنظريات التي تفسرها. وفيما يلي سوف نبين آراء العلماء العرب في هذه الظاهرة وتأثيرهم في علماء اللغة المعاصرين.

إن اللغويين العرب القدامى تحدثوا عن ظاهرة اكتساب اللغة (الأم والثانية) في موسوعاتهم العلمية القيمة منذ اثني عشر قرناً تقريباً. ومن بين هؤلاء الذين تحدثوا عن هذه الظاهرة عند الأطفال الجاحظ(٢٦)، حيث يقول: "والميم والباء أوّلُ ما يتهيّأ في أفواه الأطفال، كقولهم: ماما، وبابا؛ لأنهما خارجان من عمل اللسان، وإنما يظهران بالتقاء الشفتين".

فهذان الحرفان هما أول ما ينطقهما الأطفال عند اكتسابهم أصوات اللغة بالإضافة إلى الألف الذي ينطقونه لحظة ولادتهم؛ وأنهما أسهل الحروف

26- البيان والتبيين، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة ٧، ١٩٩٨م. ج١، ص ٦٢.

عليهم، لكونهما لا يحتاجان إلى فعل اللسان الذي يكون عادة ثقيلاً عليهم في النطق في مستهل اكتسابهم للغة.

ومن الظواهر الأخرى التي عالجها الجاحظ(٢٧): ظاهرة اكتساب اللغة الثانية في وقت متأخر من العمر. ويُطلَقُ على هذه الظاهرة في اللغة المرحلية أو الوسطى "Interlanguage" اسم "التَحَجُّر Fossilization": وهو أن الكبير لا يستطيع أن يكتسب اللغة الثانية بشكل صحيح مهما حاول ذلك: ولهذا تراه يقول: "فأما حروف الكلام فإن حُكمَها إذا تمكنت في الألسنة خلافُ هذا الحكم. ألا ترى أن السِّنْدي إذا جُلِبَ كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعلَ الجيمَ زاياً ولو أقامَ في عُليا تميم، وفي سُفلَى قيس، وبين عَجُز هوازنَ، خمسين عاماً. وكذلك النَّبَطيُّ القُحُّ خلافُ المِغلاق الذي نَشَأَ في بلاد النَّبَط، لأنَّ النَّبَطيَّ القُحَّ يجعل الزَّايَ سيناً، فإذا أراد أن يقول: زَورَق. قال: سَوْرق. ويجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول مُشْمَعِلّ، قال: مُشْمَئِلّ. والنخاس يمتحن لسانَ الجارية إذا ظنَّ أنها رومية وأهلُها يزعمون أنها مولدة بأن تقول: ناعمة، أو تقول شمس ثلاث مرَّات متواليات".

ويبين الجاحظ(٢٨) السبب في عدم اكتسابه النطق السليم للغة لأنه: "متى ترك شمائله على حالها، ولسانه على سجيته، كان مقصوراً بعادة المنشأ على الشكل الذي لم يزل فيه". فالجاحظ يبين لنا تأثير اللغة الأم في اكتساب

27- البيان والتبيين، الجاحظ، مصدر سابق، ج١، ص٥٢.

28- البيان والتبيين، الجاحظ، مصدر سابق، ج١، ص٧٠. وللمزيد عن ظاهرة التحجر انظر؛

- Jassem Ali Jassem. Study on Second Language Learners of Arabic: An Error Analysis Approach. Kuala Lumpur: A.S.Noordeen, 2000. P.85. و

- التحجر في لغة متعلمي اللغة العربية الناطقين بغيرها، العصيلي، عبدالعزيز بن ابراهيم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١، م٣٣، ربيع الآخر، ١٤٢٦هـ.

وتعلم اللغة الأجنبية أو الثانية في المراحل المتأخرة من العمر عند المتعلمين الأجانب.

ولقد عالج علم اللغة النفسي الحديث هذه الظاهرة أيضاً. وها هو الحمداني(٢٩) يقول: إن التعرض المتأخر للغة قد يكون جيداً، وإن الناس يتعلمونها بشكل سليم ولكن اعترض بعض الباحثين على هذه النتائج. وقد جاءت بعض الاعتراضات مستندة إلى روايات أو قصص واقعية. فقد يعرف الناس، أو تعرفون أنتم أناساً، تعلموا لغة ثانية في كبرهم وأبدعوا فيها (فقد كتب الأديب ذائع الصيت جوزيف كونراد بالإنجليزية بعد أن تعلمها على كبر ...). ولكن أصحاب هذه النظرية يردون على ذلك بالقول: إن نظريتهم تدور حول عامة الناس، ولا يقاس على عدد قليل من المبدعين النابغين... ولكن من النادر جداً أن يتعلم الشخص لغة ثانية بعد الشباب بطلاقة تشبه طلاقة أصحاب اللغة الأصليين، وعندما يشاهد الناس مثل هذه الحالة الخاصة فهم يتحدثون عنها بإعجاب ودهشة كبيرين. فكبير السن الذي يتعلم لغة جديدة إنما تمنعه عاداته الراسخة في التلفظ والقواعد في لغته القديمة من الاعتياد على العادات الجديدة... وهذا ما يؤكده براون(٣٠) بالقول: " إن الدارسين بعد سن البلوغ لا يصلون إلى نطق طبيعي للغة الأجنبية في الأغلب الأعم". إن هذه الآراء حول اكتساب اللغة الثانية تؤكد ما قاله الجاحظ منذ اثني عشر قرناً تقريباً.

وهناك ثلاث نظريات حديثة تطرقت لتفسير اكتساب اللغة عند الإنسان وهي كمايلي:

29- علم نفس اللغة من منظور معرفي، الحمداني، موفق، الطبعة الثانية، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ٢٠٠٧م. ص ٢٠٠.

30- أسس تعلم اللغة وتعليمها، براون، ترجمة عبده الراجحي وعلي شعبان. مرجع سابق، ص٦٦.

أولاً: النظرية السلوكية: ويمثلها في تراثنا اللغوي القديم ابن فارس(٣١) حيث يقول عن اكتساب اللغة الأم عند الأطفال بأنها: "تؤخذ اللغةُ اعتياداً كالصبي العربيّ يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات. وتؤخذ تلقُّناً من ملقّن، وتؤخذ سماعاً من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة، ويُتَّقى المظنون".

ويعزِّزُ هذا الرأي ويُدَعِّمه قول ابن خلدون أيضاً(٣٢): "فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة، ويكون كأحدهم. هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال.

فالنظرية السلوكية في علم اللغة النفسي الحديث تأخذ بهذا الرأي وتنتصر له وتؤكده. حيث يقول العصيلي(٣٣): "... فإن المبدأ الأساس الذي اعتمدت عليه هذه النظرية في اكتساب اللغة الأم هو أن الطفل يولد وعقله صفحة بيضاء، خالية من المعلومات اللغوية، وأن البيئة التي ينشأ فيها تسطر في هذه الصفحة ما تشاء، سواء أكانت بيئة طبعية كالوالدين والإخوان والأقران، أم بيئة تعليمية تربوية كالمدرسة بما فيها من معلمين وبرامج ومناهج(٣٤). ويرى أصحاب هذه النظرية أن الطفل يكتسب اللغة بالسماع والتلقين والتدريب والمران، ويعتمد على التقليد اعتماداً كلياً، وقد يلجأ إلى القياس أحياناً،

31- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، مصدر سابق، ص٣٤.

32- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٧٨ وما بعدها.

33- علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع سابق، ص٢٤٨.

34 Skinner, B. F. Verbal Behavior, New York: Appleton Century Crofts, 1957.

ويؤمنون بأن تصويب المحيطين به لأخطائه اللغوية -- حين الوقوع فيها -- يعدل من سلوكه اللغوي، ويقوده إلى اكتساب لغة سليمة صحيحة(٣٥)".

ثانياً: النظرية المعرفية الفطرية: ويمثلها ابن خلدون(٣٦): حيث يقول: إن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب، وقد ميز الله تعالى الإنسان عن الحيوان بالفكر. وهذا الفكر إنما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه. ويبدأ من التمييز. فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة، معدود من الحيوانات، لاحق بمبدئه في التكوين من النطفة والعلقة والمضغة، وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر. قال تعالى في الامتنان علينا: "وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة"(٣٧). فهو في الحالة الأولى قبل التمييز هيولي فقط لجهله بجميع المعارف، ثم تستكمل صورته بالعلم الذي يكتسبه بآلاته، فتكمل ذاته الإنسانية في وجودها. وانظر إلى قوله تعالى: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) "(٣٨). أي أكسبه من العلم مالم يكن حاصلاً له بعد أن كان علقة ومضغة. فقد كشفت لنا طبيعتُه وذاتُه ما هو عليه من الجهل الذاتي والعلم الكسبي، وأشارت إليه الآية الكريمة تقرر فيه الامتنان عليه بأول مراتب وجوده وهي الإنسانية وحالتاها الفطرية والكسبية في أول التنزيل ومبدأ الوحي.

35- نظريات التعلم: دراسة مقارنة، غازدا، جورج وكورسيني، ريموند، ترجمة علي حسين حجاج وعطية محمود هنا، الكويت: عالم المعرفة، ١٤٠٤هـ.

36- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، مصدر سابق، ج٣، ص١٠١٧-١٠١٨.

37- سورة تبارك ٦٧/٢٣.

38- سورة العلق ٩٦/٥.

ويقول ابن خلدون في موضع آخر(٣٩) "... اللغة ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الأمر أنها جبلّة وطبع. وهذه الملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه.

ومثاله لو فرضنا صبياً من صبيانهم نشأ وربيَ في جيلهم فإنه يتعلم لغتهم ويُحكِمُ شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها، وليس من العلم القانوني في شيء، وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه. وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يُحَصِّل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم ورَبِيَ بين أجيالهم. والقوانين بمعزل عن هذا". يريد ابن خلدون أن يقول: إن ملكة اللغة عند الإنسان ليست وراثية أو طبيعية، ولكنها تحتاج إلى ممارسة وتدريب وحفظ لكلام أهل اللغة حتى يصبح الناطق بها كأنه واحد منهم.

فالنظرية المعرفية الفطرية في علم اللغة النفسي الحديث التي يتزعمها تشومسكي ترى رأي ابن خلدون وتأخذ به، وهو أن اللغة فطرة خاصة بالإنسان دون غيره من المخلوقات، وأن اكتسابها فطرة وقدرة عقلية مغروسة فيه منذ ولادته، وأن أي طفل يولد في بيئة بشرية معينة سوف يكتسب لغة هذه البيئة، بغض النظر عن مستواه التعليمي والاجتماعي، مالم يكن مصاباً بأمراض جسمية أو عاهات عقلية تمنعه من تلقي اللغة أو فهمها أو استعمالها. واللغة - بهذا المفهوم - ليست سلوكاً يكتسب بالتقليد والتلقين والتعليم والمران والممارسة وحسب - كما يعتقد السلوكيون - وإنما هي فطرة عقلية معرفية (٤٠).

39- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٨٩ وما بعدها.

40- علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع سابق، ص٢٥١ وما بعدها. وانظر أيضاً:
- النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية، العصيلي، مرجع سابق، ص٨١.

وبالإضافة إلى ذلك، يقول الحمداني(٤١) في هذا المجال: إن جزءاً من القدرة على تعلم اللغة فطري، وفي الوقت نفسه لابد وأن اللغة متعلمة. كيف نوفق بين هاتين المقولتين: اللغة فطرية واللغة متعلمة؟ إن اكتساب اللغة شأنه شأن العمليات النمائية لدى الحيوانات كافة، يتضمن تعليماً يخضع بشدة لشروط بيولوجية تسيِّر النمو في مسارات محددة تقررها ميول ومؤهلات وقدرات معينة يحملها الفرد وراثياً. من الواضح أن الطفل العربي لا يتكلم العربية بالفطرة، ولا الطفل البرتغالي يتكلم البرتغالية بالفطرة. وعلينا أن نتعلم اللغة التي نتحدث بها.

أي إن الإنسان يتعلم اللغة ويكتسبها بعد الولادة من خلال المحيط والوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، بما زوده الله من أجهزة النطق والكلام.

وتؤكد عطية(٤٢) هذا الرأي في حديثها عن اكتساب اللغة حيث تقول: إن اللغة تكتسب وتتعلم، لا أثر للوراثة فيها: فالطفل الذي يولد من أبوين مصريين وينشأ بعيداً عنهما في بيئة أخرى ولتكن فرنسية مثلاً، أو ألمانية، فإنه حتماً ينطق لغة هاتين البيئتين بطلاقة واضحة وكأنه ولد من أبوين أجنبيين فعلاً.

فاكتساب اللغة إذن يأتي بعد الولادة، وكما قال تعالى: "والله أخرجكُم من بطونِ أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تشكرون"(٤٣). أي أنه سبحانه أخرجكم من الأرحام في بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء، وأوجد فيكم وسائل العلم والإدراك وهي السمع والبصر والقلوب،

41- علم نفس اللغة من منظور معرفي، الحمداني، مرجع سابق، ص ١٨٥-١٨٦.

42- علم النفس اللغوي، عطية، مرجع سابق، ص ٢٦.

43- سورة النحل ٧٨/١٦.

لتؤمنوا بالخالق عن يقين وعلم تام. وتشكروا الله على نعمه باستعمال كل عضو من أعضائكم فيما خلق له من خير (٤٤).

وكما عبر عنه ابن خلدون(٤٥) بقوله: وذلك أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله. وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك المتناول حاصلاً. وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي، لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركاً بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يحصّل علماً وبين العالم النحرير. والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون سواهما. فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي. والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب. والجسمانيات كلها محسوسة؛ فتفتقر إلى التعليم. يؤكد ابن خلدون هنا على أن التعليم كسبي ويحصل للمرء بعد الولادة.

ثالثاً: النظرية الوظيفية: إن النظرية الوظيفية في علم اللغة النفسي الحديث تبحث في الجوانب المعرفية الحقيقية، كالذاكرة والإدراك والفكر والعاطفة والمعنى، وغيرها من الجوانب التي تتكامل لتكون المعنى والوظيفة اللغوية، وتحقق الهدف الحقيقي من الكلام وهو التواصل(٤٦).

ونستطيع أن نتحسس خيوط هذه النظرية ومبادئها وأسسها في التراث العربي من خلال حديث الجرجاني عن نظرية النظم(٤٧). فنراه يقول:

44- الموسوعة القرآنية الميسرة، الزحيلي، وهبة، وآخرون، الطبعة الثالثة، دمشق: دار الفكر؛ بيروت: دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٤. ص٢٧٦.

45- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، مصدر سابق، ج٣، ص١٠١٩-١٠٢٤.

46- علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع سابق، ص٢٥٥.

47- دلائل الإعجاز، الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، لا طبعة، القاهرة: مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، لا تاريخ. ص ٤٣-٤٦.

"ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها، مما يُفرد فيه اللفظُ بالنعت والوصف، ويُنسب فيه الفضلُ والمزيَّةُ إليه دون المعنى...

فينبغي أن يُنظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكَلِمُ إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتُؤَدِّيَ في الجملة معنىً من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدّلالة حتى تكون هذه أدَلَّ على معناها الذي وُضعت له من صاحبتها على ما هي مَوسومة به...

وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحةٌ، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحُسنَ ملائمةِ معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها.

وإن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدةٌ، ولا من حيث هي كَلِمٌ مفردةٌ، وأن الفضيلة وخِلافَها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلُّق له بصريح اللفظ". انتهى.

من خلال هذا النص نستطيع أن نقرر بأن الجرجاني يركز على أمرين اثنين:

أولهما: المعنى الذي يقوم عليه مدار النظم حيث يقول: لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما يُفرد فيه اللفظُ ... دون المعنى.

فالأهمية إذن هي للمعاني وليست للألفاظ والعبارات المجردة من المعاني.

ويقول أيضاً في مواضع أخرى(٤٨): إن الألفاظ أوعية للمعاني، وإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنىً أن يكون أولاً في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله في النطق... واللفظ تَبَعٌ للمعنى في النظم، وأن الكَلِم تترتّب في النطق بسبب ترتُّب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتاً وأصداء حروفٍ، لما وقع في ضمير ولا هَجَس في خاطر، أن

48- دلائل الإعجاز، الجرجاني، مصدر سابق، ص٥٢؛ ٥٥-٥٦.

يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يُجعل لها أمكنةٌ ومنازل، وأن يجب النطقُ بهذه قبل النطق بتلك.

وثانيهما: التركيز على العملية التواصلية في الكلام حيث يقول: فينبغي أن يُنظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف ... حتى تكون هذه أدلَّ على معناها الذي وُضعت له من صاحبتها على ما هي مَوسومة به.

فالنظرية الوظيفية في علم اللغة النفسي الحديث تُولي المعنى والوظائف الاتصالية للغة أهمية كبيرة في اكتساب اللغة (انظر أدناه: النظرية الوظيفية).

ويضيف الجرجاني أيضاً(٤٩): إن النظم ليس هو معرفة علم النحو والعمل على قوانينه وأصوله، ومعرفة مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفَظَ الرسومَ التي رُسِمت لك، فلا تُخِلُّ بشيء منها. وإنما النظم هو أنك لستَ بواجدٍ شيئاً يرجعُ صوابُه إن كان صواباً، وخَطَؤُه إن كان خطأ، إلى "النظم"، ويدخلُ تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستُعمِل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وُصِف بصحة نظمٍ أو فساده، أو وصف بمزيَّةٍ وفضلٍ فيه، إلا وأنت تجد مرجعَ تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخُل في أصل من أصوله، ويتَّصِل بباب من أبوابه.

فالجرجاني(٥٠) يبين لنا هنا أن النظم لا يعني معرفة قواعد النحو وقوانينه ومناهجه فحسب، وإنما هو معرفة معاني النحو وأحكامه. وأن النظم يكون في معاني الكلم دون ألفاظها، وأن نظمها هو توخي معاني النحو فيها.

49- دلائل الإعجاز، الجرجاني، مصدر سابق، ص٨١-٨٣.

50- دلائل الإعجاز، الجرجاني، مصدر سابق، ص ٤١٥.

يتضح لنا من خلال هذه الأمثلة والشروح تأثير الجرجاني - بل وتفوقه - على تشومسكي في عرضه لنظرية النظم، والتي تعني معرفة معاني النحو وأحكامه، بينما يعدها تشومسكي معرفة قواعد اللغة (النحو) فقط ويطلق عليها اسم الكفاية (انظر أدناه، الكفاية).

ومما يؤكد لنا صواب وأحقية رأي الجرجاني وشموليته وبُعد أفقه ونظرته ما قاله ريتشارد وروجرز حينما انتقدا تشومسكي في تعريف الكفاية حيث قالا: إن الكفاية تعني المعرفة بقواعد اللغة والقدرة على استعمالها بطريقة صحيحة لغوياً ومقبولة اجتماعياً(٥١).

وعلاوة على ذلك، اهتم الجرجاني(٥٢) بالفصاحة والبلاغة التي هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال حيث يقول: الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما أوصافٌ راجعة إلى المعاني، وإلى ما يُدَلُّ عليه بالألفاظ... وقولهم: "لا يستحق الكلام اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك" وأنه: "يدخل في الأذن بلا إذن"، فهذا يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى... وأن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه، متمكناً في دِلالته، مستقلاً بوساطته، يَسْفِرُ بينك وبينه أحسن سِفارة، ويشير لك إليه أبين إشارة، حتى يخيل إليك أنك فهمته من حاقِّ اللفظ، وذلك لقلة الكُلفة فيه عليك، وسُرعة وصوله إليك...

وإن الفصاحة لا تكون في أفراد الكلمات، وأنها إنما تكون فيها إذا ضُمَّ بعضُها إلى بعض... وأن المعنى أيضاً يكون في "ضمِّ بعضها إلى بعض"، وتعليق،

51- مذاهب وطرائق في تعليم اللغات، رتشاردز، جاك وروجرز، ثيودر، ترجمة محمود صيني وعبد الرحمن العبدان، وعمر الصديق عبدالله. الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٠هـ. ص ١٢٤-١٣٧. (نقلاً عن: علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع سابق، ص ٢٥٨ وما بعدها).

52- دلائل الإعجاز، الجرجاني، مصدر سابق، ص ٢٥٩؛ ٢٦٧-٢٦٨؛ ٤٦٦.

بعضها ببعض، وجعلُ بعضها بسبب من بعض، لا أن يُنطَق بعضها في أثر بعض، من غير أن يكون فيما بينها تعلُّق، ويعلمُ كذلك ضرورةً إذا فكّر، أن التعلُّق يكون فيما بين معانيها، لا فيما بين أنفُسها.

ويؤكد هذا الرأي ابن خلدون(٥٣)؛ حيث يقول: إن اللغات ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة.

ويضيف ابن خلدون قائلاً (٥٤): إن ملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم.

وتحدث الجرجاني أيضاً عن مسألة الفكر وعلاقته بالنظم(٥٥). ورأى أن النظم صنعة يستعان عليها بالفكرة ويستخرج بالروية؛ وقال أيضاً: إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة المجردة من معاني النحو، ومنطوقاً بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوخيها فيها...

هذا باختصار عن رأي الجرجاني في النظرية الوظيفية. وفيما يلي نبين جوانبها في علم اللغة النفسي الحديث.

يتلخص تفسير الوظيفيين لاكتساب اللغة(٥٦): في أن الوظيفة التي يؤديها الكلام الذي يصدره الطفل في موقف معين هو المعنى الحقيقي لما يقول، لا

53- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٧٨ وما بعدها.

54- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٩٠.

55- دلائل الإعجاز، الجرجاني، مصدر سابق، ص ٥١؛ ٤١٠، وللمزيد انظر؛ ص٤١٥ وما بعدها.

56- علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع سابق، ص٢٥٥-٢٥٩.

المعنى الذي يفسره الوالدان، ولا البنية الشكلية الظاهرة فقط، وهذا المعنى يختلف حسب مقصود الطفل المتكلم. فالأطفال – في نظر هؤلاء – يتكلمون الأبنية العميقة التي تمثل المعاني والوظائف، لا الأبنية السطحية للمفردات والتراكيب. (بمعنى آخر الاهتمام بالمعنى لا باللفظ). وأن الجانب الدلالي هو الذي يحدد مسار اكتساب اللغة وليس الجانب البنائي. فالنمو الوظيفي تجدده القدرات الإدراكية والاتصالية التي ترتبط بإطار فطري معرفي، أما النمو البنائي الشكلي فتحدده القدرات الإدراكية التي تعالج المعلومات وترتبط بإطار فطري تركيبي، وأن ما يعرف الأطفال هو الذي يحدد ما يتعلمونه من الكلام والفهم. وقد تبين للباحثين فيما بعد أن الطبيعة الوظيفية للغة تتجاوز الفكر المعرفي وبنية الذاكرة، وأن النظام السلوكي التبادلي يجري بين لغة الطفل النامية ولغة الكبار المكتملة في أثناء تعلم الطفل طبيعة الحياة وتكيفه مع مجتمعه. وقد أدت هذه النظرة إلى الاهتمام بالوظائف التواصلية للغة فتطلب هذا الاهتمام بدراسة هذه الوظائف وتحديدها. فاهتم الباحثون بتحديد ما يعرفه الأطفال، وما يتعلمونه من الآخرين، وما يعرفونه عن ترابط أجزاء الجملة وعلاقات الجمل ببعضها، وطبيعة التفاعل بين المتحدث والسامع، ومفاتيح الحوار، ونحو ذلك من الوظائف الاتصالية. (وهذا ما عناه الجرجاني بالبلاغة والفصاحة، انظر أعلاه).

وفي هذا الخصوص، يقول: (رتشاردز وروجرز(٥٧)) ما ملخصه: إن هايمز وهاليداي وودوصن وغيرهم توسعوا في الكفاية اللغوية التي نادى به تشومسكي والمقصورة على معرفة قواعد اللغة فهي كفاية نحوية فقط في نظرهم – إلى الكفاية التواصلية؛ التي تعني المعرفة بأصول الكلام، ومراعاة طبيعة المخاطبين، مع القدرة على تنويع الكلام حسب مقتضى الحال، من طلب

57- مذاهب وطرائق في تعليم اللغات، رتشاردز، جاك وروجرز، ثيودر، مرجع سابق، ص ١٢٤-١٣٧. (نقلاً عن: علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع السابق، ص٢٥٨ وما بعدها).

واعتذار وشكر ودعوة ونحو ذلك، إضافة إلى المعرفة بقواعد اللغة ومفرداتها. فهذه الكفاية إذن تعنى المعرفة بقواعد اللغة وقوانينها الصرفية والنحوية، مع القدرة على استعمالها بطريقة صحيحة لغوياً ومقبولة اجتماعياً.

من خلال عرض هذه الآراء عن النظرية الوظيفية وجدنا تفسيرها عند الجرجاني(٥٨) بشكل واضح. وذلك من خلال حديثه عن النظم؛ والذي يعني الاهتمام بمعاني الكلم وتوخي معاني النحو فيه ومعرفة أحكام النحو وفروقه ووجوهه، والعمل بقوانينه وأصوله، والقدرة على استعمال اللغة بشكل صحيح ومقبول. والاهتمام بالوظائف الاتصالية للغة، وترابط الكلام فيما بينه ومطابقته لمقتضى الحال، وعلاقة الفكر باللغة أيضاً.

وهذه القضية تقودنا إلى أن نسلط الضوء على البنية العميقة والسطحية عند تشومسكي ونناقشها بشيء من التفصيل على ضوء نظرية النظم عند الجرجاني لنرى مدى تأثيره في تشومسكي.

البنية العميقة والبنية السطحية:

إن من أهم القضايا التي أخذها تشومسكي على البنيويين في التحليل اللغوي، وبدأ بها هجومه الكاسح على منهجهم في وقت مبكر، الاهتمام بسطح اللغة دون عمقها. لأن التعامل مع البنية السطحية للغة في نظره لا يقدم شيئاً، بل لا يعتبر علماً لأنه لا يفسر شيئاً، ولكن الأهم هو الوصول إلى البنية التحتية أو العميقة للغة إذ من خلالها نصل إلى قوانين الطبيعة البشرية(٥٩).

لقد أصَّل الجرجاني(٦٠) هذه الفكرة في نظرية النظم فقد كان يهتم بالمعنى اهتماماً بالغاً وليس باللفظ الذي هو تبع للمعنى. ولقد عاب على

58- دلائل الإعجاز، الجرجاني، مصدر سابق، ص٤٥١.

59- النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية، العصيلي، مرجع سابق، ص٧٥.

60- دلائل الإعجاز، الجرجاني، مصدر سابق، ص٢٥٥-٢٥٧.

الجاحظ هذه النظرة السطحية للغة عندما استشهد ببيتين من الشعر، أغفل فيهما ظاهرة المعنى وانتصر للفظ انتصاراً عظيماً. حيث يقول في دلائل الإعجاز -نقلاً عن الحيوان للجاحظ -:

لا تَحْسَبَنَّ المَوتَ مَوتَ البِلَى وإنَّما المَوتُ سُؤَالُ الرِّجَالْ

كِلاهُمَا مَوْتٌ، ولكِنَّ ذَا أَشَدُّ مِن ذَاكَ على كُلِّ حالْ

"ثم قال: وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وصِحَّة الطبع، وكثرة الماء، وجَودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير" فقد تراه كيف أسقط أمر المعاني، وأبى أن يجب لها فضل فقال: "وهي مطروحة في الطريق"، ثم قال: "وأنا أزْعُم أن ابن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً"، فَأَعْلَمَكَ أن فضل الشعر بلفظه لا بمعناه، وأنه إذا عَدِم الحُسنَ في لفظه ونظمه، لم يستحقَّ هذا الاسم بالحقيقة.

واعلم أنهم لم يبلغوا في إنكار هذا المذهب ما بلغوه إلا لأن الخطأ فيه عظيم، وأنه يفضي بصاحبه إلى أن يُنكرَ الإعجاز ويُبطل التحدي من حيث لا يشعر. وذلك أنه إن كان العمل على ما يذهبون إليه، من أن لا يجب فضلٌ ومزية إلا من جانب المعنى، وحتى يكون قد قال حِكمةً أو أدباً، واستخرج معنى غريباً أو تشبيهاً نادراً، فقد وجب اطِّراحُ جميع ما قاله الناس في الفصاحة والبلاغة، وفي شأن النظم والتأليف، وبَطَل أن يجب بالنظم فضلٌ، وأن تدخله المزية، وأن تتفاوت فيه المنازل. إذا بطل ذلك، فقد بطل أن يكون في الكلام معجزٌ، وصار الأمر إلى ما يقوله اليهودُ ومن قال بمثل مقالهم في هذا الباب، ودخل في مثل تلك الجهالات، ونعوذ بالله من العَمَى بعد الإبصار.

ونراه يقول في موضع آخر (٦١): ثم ترى الذين لَهِجُوا بأمر اللفظ قد أَبَوا إلاّ أن يجعلوا النظم في الألفاظ. ترى الرجل منهم يرى ويعلمُ أن الإنسان لا

61- دلائل الإعجاز، الجرجاني، مصدر سابق، ص٤٥٤ وما بعدها.

يستطيع أن يجيء بالألفاظ مرتَّبةً إلا من بعد أن يفكّر في المعاني ويرتِّبها في نفسه على ما أعلمناك، ثم تُفتِّشه فتراه لا يعرف الأمرَ بحقيقته، وتراه ينظر إلى حال السامع، فإذا رأى المعاني لا تقعُ مرتبةً في نفسه إلا من بعد أن تقع الألفاظ مرتبةً في سمعه، نَسِيَ حال نفسه، واعتبر حال من يسمع منه. وسببَ ذلك قِصَر الهمَّة، وضَعْفُ العناية، وتَرْكُ النظر، والأُنْسُ بالتقليد.

نلحظ هنا اهتمام الجرجاني بالمعنى لأن فيه الفضل والمزية وبيان الإعجاز في الكلام، ولأن فيه إعمال للعقل أيضاً. أما اللفظ فهو تبع له.

ويقول العصيلي(٦٢): إن تفريق تشومسكي بين البنية السطحية والبنية العميقة نابع من فلسفته العقلانية العامة، ونظرته إلى الإنسان بوصفه مخلوقاً يختلف عن سائر المخلوقات، ويتميز عنها بميزات كثيرة من أهمها: اللغة، والذكاء، والقدرة على التفكير (انظر أعلاه: الفكر واللغة).

وإذا كانت اللغة بهذه الأهمية فليس من المعقول أن نقتصر في تحليلها ووصفها على سطحها، كما هو بمقياس المنبه والاستجابة، ونعامل الإنسان باعتباره حيواناً، أو طيراً، أو آلة، ونغفل جانب المعنى، ودور العقل في هذه الظاهرة العجيبة.

والبنية العميقة أو البنية الباطنية للجملة، كما يُطلق عليها أحياناً، يمكن تعريفها بأنها: مفهوم تجريدي معنوي للتمثيل النحوي للجملة، أو هي المستوى الضمني التحتي للتنظيم البنائي، الذي يحدد جميع العوامل التي تتحكم في ترجمة الجملة وفهم معناها؛ لأن العلاقات المعنوية بين أركان الجملة في هذا المستوى واضحة ومفهومة.

أما البنية السطحية، فهي المرحلة الأخيرة في التشكيل النحوي لبناء الجملة، بعد تطبيق قوانين تحويلية معينة على بنيتها الباطنية، وهي الشكل

62- النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية، العصيلي، مرجع سابق، ص٧٥ وما بعدها.

الظاهري الصوتي الذي ننطقه ونسمعه أو نقرأه. فالبنية السطحية هي: تلك البنية التي تبدو فيها الجملة بصورتها الحالية.

إن تحليل هذا المستوى العميق من الجملة يمكن أن يقدم لنا معلومات تساعدنا على فهم المعنى الحقيقي لجملة ما يحتمل تركيبها الظاهري أكثر من معنى ولا يمكن تحديد واحد منها بدون تحليل البنية العميقة. ففي قولنا مثلاً: ظُلْمُ الموظفِ مشكلة، لا نستطيع أن نحدد من خلال الشكل الظاهري فقط لهذه الجملة ما إذا كان الموظف ظالماً أم مظلوماً. ففي هذه الحالة لا بد من العودة إلى السياق الذي قيلت فيه هذه الجملة. (وهذا ما عناه الجرجاني بالمعنى ومعنى المعنى(٦٣)).

لقد ناقش الجرجاني هذه القضية (البنية العميقة والسطحية) في دلائل الإعجاز(٦٤)حيث يقول: إن الكلام على ضَرْبَين:

ضَرْبٌ أنت تصِل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تُخبِر عن "زيد" مثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت: "خرج زيد"، وبالانطلاق عن "عمرو" فقلت: "عمرو منطلق"، وعلى هذا القياس.

وضربٌ آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يَدُلُّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعُه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دِلالةً ثانية تصل بها إلى الغرض. ومَدَارُ هذا الأمر على "الكناية" و "الاستعارة" و "التمثيل"... أو لا ترى أنك إذا قلت: "هو كثير رماد القدر"، أو قلت: "طويل النجاد"، أو قلت في المرأة: "نَؤُوم الضحى"، فإنك في جميع ذلك لا تُفيد غَرَضك الذي تعني من مجرَّد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يُوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانياً هو غَرَضُك، كمعرفتك من "كثير رماد/القدر" أنه مِضْياف، ومن "طويل

63- دلائل الإعجاز، الجرجاني، مصدر سابق، ص٢٦٣ وما بعدها.

64- دلائل الإعجاز، الجرجاني، مصدر سابق، ص٢٦٢.

النجاد" أنه طويل القامة، ومن "نؤوم الضحى" في المرأة أنها مُتْرَفَةٌ مخدومةٌ، لها من يكفيها أمرها.

ويوضح هذا الكلام بشكل آخر أيضاً(٦٥)حيث يقول: إن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسمٌ تُعزى المزَّية والحسُن فيه إلى اللفظ، وقسمٌ يُعزى ذلك فيه إلى النظم.

القسم الأول: "الكناية" و"الاستعارة" و"التمثيل الكائن على حَدِّ الاستعارة"، وكل ما كان فيه على الجملة، مجاز واتِّساعٌ وعُدولٌ باللفظ عن الظاهر. فما من ضرب من هذه الضُّروب إلا وهو إذا وقع على الصَّواب وعلى ما ينبغي، أوجبَ الفضلَ والمزية. فإذا قلت: "هو كثير رماد القدر"، كان له موقع وحظٌّ من القبول لا يكون إذا قلت: "هو كثير القِرَى والضيافة" الخ. لا يجهل المزيَّةَ فيه إلا عديمُ الحِسِّ ميِّتُ النفس، وإلا من لا يكلَّم، لأنه من مبادئ المعرفة التي من عَدِمَها لم يكن للكلام معه معنىً. وإذا قد عرفت هذه الجملة، فينبغي أن تنظر إلى هذه المعاني واحداً واحداً، وتعرف محصولها وحقائقَها، وأن تنظُر أولاً إلى الكناية، وإذا نظرت إليها وجدتَ حقيقتها ومحصولَ أمرها أنها إثباتٌ لمعنى، أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ. ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم: "هو كثير رماد القدر"، وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفته بأن رجعتَ إلى نفسك، فقلت: إنه كلامٌ قد جاء عنهم في المدح...الخ.

وأما القسم الثاني: وهو الذي تكون فصاحته في النظم. إن النظم ليس شيئاً غيرَ توخِّي معاني النظم فيما بين الكَلِم، وأنك ترتب المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظَ في نطقك، وأنَّا لو فرضنا أن تخلُوَ

65- دلائل الإعجاز، الجرجاني، المصدر نفسه، ص٤٢٩ وما بعدها؛ و: ص٤٥١، ٤٥٤-٤٥٥.

وللمزيد انظر أيضاً:

- Abu Deep, Kamal, Al-Jurjani's Theory of Poetic Imagery and its Background, Ibid.

الألفاظ من المعاني، لم يُتصَوَّر أن يجب فيها نظمٌ وترتيب، في غاية القوة والظهور...

فنظرية النظم عند الجرجاني تبحث في المعنى بشكل أساسي وتوليه أهمية كبرى في الجملة، وأن اللفظ تبع ومفسر له، وهذا ما عناه تشومسكي بالبنية العميقة التي هي الأساس في الجملة، وأن البنية السطحية هي المترجمة لها على صيغة الألفاظ الظاهرة(٦٦).

ولهذا فإننا نجد مصطلحات النظم والمعنى واللفظ عند الجرجاني يقابلها مصطلحات الكفاية والبنية العميقة والسطحية عند تشومسكي على التوالي ولها المعنى ذاته كما هي عند الجرجاني.

رابعاً: لغة الحيوانات

إن تعليم الحيوانات اللغة مسألة قديمة عرفها العلماء العرب منذ القدم. ولم تكن جديدة عليهم كما يرى بعض العلماء العرب المعاصرين وغيرهم؛ الذين يعتقدون بأن تعليم الحيوانات اللغة بدأ في القرن العشرين(٦٧).

يقول العصيلي(٦٨): إن تعليم الحيوانات بدأ على يد العالم الروسي بافلوف (١٨٤٩ -١٩٣٦) الذي كان يقيس مقدار ما يسيل من لعاب الكلب عندما يقدم له الطعام.

ويقول فيجوتسكي(٦٩): إن الكلام والتفكير ينشأ في الحيوانات من أصول مختلفة وبنمو وفقاً لمسارات مختلفة. وهذه حقيقة قد أيدتها دراسات كيولر

66- النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية، العصيلي، مرجع سابق، ص٧٤-٧٥.

67- علم نفس اللغة من منظور معرفي، الحمداني، مرجع سابق.

- علم النفس اللغوي، السيد، مرجع سابق.

68- النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية، العصيلي، مرجع سابق، ص٢٠.

69- التفكير واللغة، تأليف: ل.س. فيجوتسكي، تقديم: لوريا ليونييف. برونر، تعقيب: جان بياجيه، ترجمة: دكتور طلعت منصور، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٦م. ص١٢٩.

وبيركس وغيرها على القردة. فقد أثبتت تجارب كيولر أن أصل النشاط العقلي - أي التفكير بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى - يظهر لدى الحيوانات غير مرتبط بالكلام. فما تتوصل إليه القردة من "ابتداعات" في إعداد الأدوات واستخدامها، أو في إيجاد طرق غير مباشرة لحل المشكلات، بالرغم من أنها تمثل بلا شك تفكيراً أولياً، يؤلف مرحلة ما قبل اللغة في نمو التفكير. ويعتبر كيولر نفسه أن بحوثه تثبت أن قرود الشمبانزي تبدي استعداداً وبدايات للسلوك الذهني من نفس نوع ونمط سلوك الإنسان.

إن هذا الموضوع لم يكن جديداً في الدراسات اللغوية العربية؛ فقد بُحِثَ عند العلماء العرب السابقين منذ ١٤ قرناً من الزمان. ولهذا نجد في القرآن الكريم والحديث الشريف ما يثبت ذلك. أي أن للحيوانات لغة وتفكيراً وعلماً، ولكننا لا نفقه تسبيحها إلا من اختصه الله بذلك.

قال تعالى: "وما علّمتم من الجوارح مُكلّبينَ تُعلمونهُنَّ مما علّمكم الله"[٧٠].

وقال تعالى[٧١]: " وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ

70- سورة المائدة: ٤/٥.

71- سورة النمل: ١٦/٢٧-٣١.

كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذهب بكتابي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قالت يا أيها الملؤا إني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم (٣٠) ألا تعلو عليَّ وأتوني مسلمين (٣١)".

قال الزمخشري(٧٢) في شرح آية: "وما علّمتم من الجوارح مُكَلِّبِينَ تُعلمونهُنَّ مما علّمكم الله" الجوارح: الكواسب من سباع البهائم والطير، كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازي والشاهين. والمكلِّب: مؤدِّب الجوارح ومضرِّيها بالصيد لصاحبها، ورائضها لذلك مما علم من الحيل وطرق التأديب والتثقيف، وأن يكون من يعلّم الجوارح نحريراً في علمه مدرّباً فيه، موصوفاً بالتكليب، و "تعلمونهن" وهي أن على كل آخذ علماً ألاّ يأخذه إلا من أقتَلَ أهْلَه علماً وأنحرهم دراية وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه

72- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، مصدر سابق، ج٢، ص١٩٧ وما بعدها.

أكباد الإبل، فكم من أخذ عن غير متقن، قد ضيع أيامه وعضّ عند لقاء النحارير أنامله، "مما علمكم الله" من علم التكليب، لأنه إلهام من الله ومكتسب بالفعل، أو مما عرّفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وانزجاره بزجره، وانصرافه بدعائه، وإرسال الصيد عليه وألا يأكل منه، وفي قوله: "تُعَلِّمونَهُن مما علَّمكم الله" فائدة جليلة...الخ قال أحمد: وفي الآية دليل على أن البهائم لها علم لأن تعليمها معناه لغة تحصيل العلم لها بطرق خلافاً لمنكري ذلك.

ويُعَقِّب الزحيلي(٧٣) على هذه الآية قائلاً: ولابد في تعليم الجوارح من أمور ثلاثة:

١ً: أن تكون الجوارح معلَّمة.

٢ً: وأن يكون من يعلّمها ماهراً في التعليم مدرّباً فيه.

٣ً: وأن يعلّم الجوارح مما علمه الله، بأن تقصد الصيد بإرسال صاحبها، وأن تنزجر بزجره، وأن تمسك الصيد ولا تأكل منه إذا كان المعلَّم كلباً، وأن يعود الكلب إلى صاحبه متى دعاه، ويعرف تعليم الكلب بترك الأكل ثلاثاً، وإذا كان طيراً مثل البازي، يعرف تعليمه بالرجوع إلى صاحبه إذا دعاه، والفرق بينهما أن تعليم الكلب يكون بترك ما يألفه ويعتاده، وعادة الكلب السلّب والنهب، فإذا ترك الأكل ثلاثاً عرف أنه تعلم، وعادة البازي النَّفرة، فإذا دعاه صاحبه فعاد إليه، عرف أنه تعلم. ولحديث عدي بن حاتم عند أحمد والشيخين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أرسلت كلابك المعلَّمة، وذكرت اسم الله، فَكُلْ مما أمسكن عليك، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه" وفي رواية أخرى: "إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله فَكُل..."

73- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الزحيلي، وهبه، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، ١٩٩١م. ج٦، ص٩٣.

وحديث محمد بن المنهال الضرير قال(٧٤): ... إن أعرابياً يقال له أبو ثعلبة قال: "يا رسول الله إنَّ لي كلاباً مُكَلَّبَةً، فأفتني في صيدها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن كان لك كلابٌ مُكَلَّبَةٌ فكل مما أمسكن عليك. قال ذكيًّا أو غيرَ ذكي قال نعم. قال فإن أكل منه؟ قال وإن أكل منه...".

ويقول الطبري(٧٥) نقلاً عن ابن عباس: "المعلَّم من الكلاب: أن يمسكَ صيده، فلا يأكل منه حتى يأتيه صاحبه". ويقول في الطير: "إذا أرسلْتَه فَقَتَل، فكُلْ. فإن الكلب إذا ضربته لم يعد، وإن تعليم الطير أن يرجع إلى صاحبه، فإذا أكل من الصيد ونتفَ من الريش فَكُل.وقال تعالى: "ياأيها الناس، عُلِّمنا منطق الطير" يقول الزحيلي(٧٦): في تفسير هذه الآية: إن سليمان كان أعظم مُلكاً من أبيه، فقد أُعطي داود، وزيد له تسخير الريح والشياطين، ومعرفة لغة الطيور، كما أخبر تعالى معدداً بعض نعم الله عليه:

١ً : تعليمه منطق الطير: وقال: "ياأيها الناس، عُلِّمنا منطق الطير" أي قال سليمان متحدثاً بنعمة الله عليه أن ربه علَّمه لغة الطير والحيوان إذا صوَّت، فاستطيع التمييز بين مقاصده من نوع تصويته. وربما فهم بعض الناس الذين يقدمون خدمات للحيوان بعض أصوات الحيوانات، كالخيول والبغال والحمير والأبقار والإبل والقطط، فيدركون رغبتها في الأكل والشرب ويفهمون تألمها عند المرض أو الضرب. قال البيضاوي: "ولعل سليمان عليه السلام كان إذا سمع

74- عون المعبود على شرح سنن أبي داود، الصديقي، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، طبعة مراجعة ومدققة: لمحمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبدالله النعماني الأثري، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، ٢٠٠٥م. المجلد٢، ص١٢٨٨.

75- تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، هذبه وقربه وخدمه: صلاح عبد الفتاح الخالدي، خرج أحاديثه: ابراهيم محمد العلي، الطبعة ١، دمشق: دار القلم، بيروت: دار الشامية، ١٩٩٧م. ج٣، ص ١٣٧.

76- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الزحيلي، مرجع سابق، ج ١٩، ص٢٧٣-٢٧٩.

صوت حيوان، علم بقوّته الحدسية التخيّل الذي صوَّته، والغرض الذي توخاه به، ومن ذلك ما حُكي: أنه مرّ ببلبل يصوِّت ويرقص، فقال سليمان: إنه يقول: "إذا أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العَفَاء". وصاحت فاختة (نوع من الحمام البري: جمع فواخيت) فقال: إنها تقول: "ليت الخَلْق لم يُخْلَقوا" فلعل صوت البلبل كان عن شبع وفراغ بال، وصياح الفاختة عن مقاساة شدة وتألم قلب.

٢ً: معرفة لغة النمل

قال تعالى: "حتى إذا أتَوا على واد النمل قالت نملةٌ يا أيها النملُ ادخلوا مساكنكم لا يَحْطِمَنَّكُم سُليمانُ وجُنُودُهُ وهم لا يشعرون" أي حتى إذا قدم سليمان ومن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل: نادت نملة – هي ملكة النمل، كما فهم سليمان – : يا أيها النمل، ادخلوا بيوتكم، حتى لا يكسرنكم سليمان وجنوده، دون أن يشعروا بذلك. ومن وقائع فهم سليمان كلام النمل: ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال: "خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك، وإلا تسقنا تهلكنا، فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم. وعدد الله في القصة نعماً ثلاثاً على سليمان عليه السلام: هي تعليمه منطق الطير وإيتاؤه الخير الكثير، وتسخير الجن والإنس والطير، وفهمه خطاب النملة. وما حكاه الله تعالى من قول النملة: "وهم لا يشعرون" حسن اعتذار، وبيان عدل سليمان ورأفته وتدينه وفضله وفضل جنوده، فهم لا يحطمون نملة أو لا يدوسون على نملة فما فوقها إلا خطأ غير مقصود لا يشعرون. فهذا دليل ساطع على أن للحيوانات لغة ولكننا لا نعرفها إلا من اختصه الله بذلك.

ولقد أودع الله في كل حيوان غرائز معينة، يهتدي بها إلى ما ينفعه ويمتنع بها عما يضره. والله سبحانه أبدع كل شيء، وأحسن كل شيء خلقه.

وقد أجاب موسى عليه السلام فرعون حينما قال له ولأخيه هارون: "قال: فمن ربكما يا موسى؟ قال: ربنا الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقَهُ ثم هدى"[٧٧].

يقول الزحيلي(٧٨) في تفسير هذه الآية: أي قال موسى ربنا هو الذي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يليق به، ويطابق المنفعة المنوطة به،كاليد للبطش، والرجل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع. ثم أرشدهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم، فانتفعوا بكل شيء فيما خلق له، إما اختياراً كالإنسان والحيوان، وإما طبعاً كالنبات والجماد، كقوله تعالى: "والذي قدّر فهدى"[٧٩]. أي قدر تقديراً وهدى الخلائق إليه...

ويعقب الدكتور عمر عبد الكافي على الآية السابقة - "قال: فمن ربكما يا موسى؟ قال: ربنا الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقَهُ ثم هدى"[٨٠] - في أشرطته المسجلة عن الدار الآخرة أنه كان في أحد المؤتمرات العلمية السابقة حديث عن النمل في أوروبا، وكان من بين المشاركين علماء من العرب المسلمين. فتعجب الغربيون من أمر النمل أنهن يفلقن حبوب القمح فلقتين بعد أن يجنينه، ويفعلن كذلك بسائر أنواع الحبوب - كي لا تُنْبَت مرة أخرى - إلا الكرفس (الكزبرة) فإنهن يقطعنه ثلاث قطع كي لاينمو كذلك، لأنهن إذا قطّعنه قطعتين فقط فإنه ينمو مرة أخرى. فقالوا: إن النمل يرى بعضه بعضاً ويتعلم ذلك، ولكننا نريد أن نأتي بنملة صغيرة ولدت للتو، وننقلها إلى بيئة أخرى

77- سورة طه: ٢٠/٤٩-٥٠.

78- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الزحيلي، مرجع سابق، ج١٦، ص ٢٢٣.

79- سورة الأعلى: ٨٧/٣.

80- سورة طه: ٢٠/٤٩-٥٠. ("الدار الآخرة" أشرطة مسجلة، الدكتور عمر عبد الكافي، تسجيلات حُنين الإسلامية، مكة المكرمة).

وتعيش وحيدة كي لا تتعلم من زميلاتها. وبعد أن تكبر تلك النملة — التي سوف تعيش وحيدة — نأتي لها بحبة قمح لنرى ماذا تفعل بها، فجاؤوا لها بحبة قمح - بعد أن كبرت - فقطعّتها قطعتين، وفعلت كذلك بكل أنواع الحبوب، إلا الكرفس (الكزبرة) فكانت تقطعها ثلاث قطع أيضاً. فتعجبوا من أمر هذه النملة. فقالوا: لو شاهدت غيرها لقلنا: إنها تعلمت من غيرها؛ ولكننا وضعناها في مكان بعيد عن النمل، لا ترى أحداً فمن أعلمها بذلك؟ فقالوا للعلماء العرب المسلمين المشاركين في ذلك المؤتمر: هل عندكم جواب على هذا الأمر؟ فقام أحدهم وردَّ عليهم بقول الله تعالى: "ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى". أي علّم كل مخلوق ما يحتاجه من العلوم والمعارف وغيرها... وأسلم بعض المؤتمرين في ذلك المؤتمر ولله الحمد.

وهنا يحضرني — في هذا السياق — حادثتان وقعتا مع صاحب هذه السطور منذ منتصف السبعينيات من القرن الماضي عن الحيوانات. الحادثة الأولى: عندما كنا نحلب الماعز والغنم مساءً يأتي بعضهن إلى مكان الحلب طواعية وبمفردهن دائماً، ويقفن للحلاب من دون أن يُمْسَكْنَ — على خلاف البقية — وبعد أن يُحلبن يذهبن إلى مكانهن الذي يجلسن فيه عادة. والحادثة الثانية: إن الماعز في فصل الصيف يريد السفاد، فكان مما شاهدته أنه كان أحد الفحول (التيوس) جاء إلى أمه عندما أرادت السفاد، فاشتم رائحة فرجها ثلاث مرات ثم ينظر إلى السماء عالياً وهو يستنشق الرائحة بعد كل مرة، ثم لما عرف أنها أمه، ذهب بعيداً عنها ولم يقربها البتة، فجاء غيره من التيوس في ذلك القطيع لسفادها.

وروى لي أحد الناس عمن يرعون الإبل: أن جملاً سفد أمه بعد أن غطوها عنه بغطاء لكي لا يعرفها ويراها، وبعد أن انتهى من السفاد أماطوا الغطاء عن أمه فعرفها، فأخرج ذكره وقطعه بأسنانه ومات على إثرها!!! فمن أعلم هذه الحيوانات بمثل هذه الأخلاق النبيلة الرفيعة؟!!! أليس لهذه

الحيوانات تفكير وعلم؟! بلى وربي! ويقول تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ(٨١).

وهذا يؤكد لنا أن للحيوانات لغة وعلماً وتفكيراً وأخلاقاً أيضاً.

وقال تعالى(٨٢): "...قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فَأَلْقِهْ إليهم ثم تَوَلَّ عنهم فانظُر ماذا يَرجِعُون. قالت يا أيها الملؤا إني أُلقِيَ إليَّ كتابٌ كريمٌ. إنه من سُليمانَ وإنه بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ. ألا تعلو عليَّ وأتوني مسلمين".

يقول الطبري في تفسيرها(٨٣): قال: كتب سليمانُ: يعني مع الهدهد: بسم الله الرحمن الرحيم، من سليمان بن داود إلى بلقيس بنت ذي شرح وقومها. أما بعدُ، فلا تعلوا عليَّ، وأتوني مسلمين. قال: فأخذ الهدهدُ الكتابَ برجله فانطلق به حتى أتاها، وكانت لها كَوَّةٌ في بيتها، إذا طلعت الشمسُ نظرت إليها فسجدت لها، فأتى الهدهدُ الكَوَّةَ فَسَدَّها بجناحَيْه، حتى ارتفعت الشمسُ ولم تَعْلَمْ، ثم ألقى الكتابَ من الكَوَّةِ، فوقع عليها في مكانها الذي هي فيه فأخذته.انتهى.

وهذا يذكرنا بما كان للعرب - مستفيدين من هذه الآية الكريمة من دور بارز في تعليم الحمام الزاجل لإيصال الرسائل فيما بين الولايات والمدن وذلك عند اتساع رقعة الدولة المترامية الأطراف(٨٤). ولقد بلغوا في تعليم

81- سورة الأنعام: ٣٨/٦.

82- سورة النمل: ٢٧/٢٧-٣١.

83- تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مصدر سابق، ج١٨، ص٤٤ وما بعدها.

84- المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي، شهاب الدين بن محمد، حققه وقابله على عدة نسخ وقدّم له: عبدالله أنيس الطباع، بيروت: دار القلم، ١٩٨١م. ٣٤٩-٣٥٠.

الحمام شأواً عظيماً في زمن لم تكن فيه وسائل الاتصالات السريعة مثل الطائرة والبريد الالكتروني والشبكة العالمية للمعلومات الفضائية (الإنترنت) وغيرها من وسائل الاتصال الحديثة معروفة وموجودة.

وعلاوة على ذلك، فإن العلماء في العصر الحديث استفادوا من هذه الفكرة القديمة وأخذوا يدرِّبون الطيور على حمل أجهزة تجسسية على الدول الأخرى. جاء هذا الخبر في صحيفة عكاظ السعودية(٨٥) التي تقول: كشف موقع (العالم) الفارسي الإلكتروني: أن الأجهزة الأمنية الإيرانية نجحت في صيد عدد من الطيور: كانت تحمل أجهزة تجسس قرب موقع نطنز النووي الإيراني. وقال موقع (العالم) الفارسي: إن الطير كان يحمل خيوطاً غير مرئية، إضافة إلى رباط مفتوح فلزي. وأضاف الموقع نقلاً عن مصادر إيرانية: إن الأجهزة الأمنية تحاول إجراء تحقيقات حول الأجهزة التي يحملها الطير، والتي تتعلق بالتجسس على مواقع إيران النووية. مشيرة إلى إن القضية تتعلق بالجهة التي أرسلت الطير هل هي خارجية أم داخلية تعمل للخارج.

وفي قوله تعالى: "قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ"[٨٦].

يرى العلماء في العصر الحديث أن الحيوانات لها لغة؛ فهي تصدق وتكذب وتخدع مثل البشر. وهنا يذكر الكحيل(٨٧): إن الطيور لديها القدرة على

85- الأمن الإيراني يصطاد طائراً يتجسس على "نطنز النووي"، ستار كريمي، صحيفة عكاظ السعودية، (الثلاثاء ٢٢ /١٠/ ١٤٢٩هـ) - ٢١/ أكتوبر/٢٠٠٨ العدد : ٢٦٨٣، الموقع الإلكتروني:
http://www.okaz.com.sa/okaz/osf/20081021/Con20081021235108.htm

86- سورة النمل: ٢٧/٢٧.

87- الحيوانات تكذب: سبحان الله. الكحيل، عبد الدائم، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، البريد الإلكتروني: **www.kaheel7.com** والموقع الإلكتروني:

الكلام والتعلم، وأن سيدنا سليمان كان يخاطب هذه الطيور ويفهم لغتها؛ وكان يخاطب الهدهد ويتكلم معه، ومن الممكن أن يصدق هذا الهدهد أو يكذب بدليل الآية الكريمة. وهذا ما أثبته العلماء في بحوثهم عن الطيور أيضاً. وبالإضافة إلى ذلك؛ فقد تبين للعلماء في بحث جديد: أن الطيور تشبه البشر في طريقة التعلم؛ وأن أدمغتها تعمل بكفاءة عالية أثناء التغريد، مما يعني أنها تتأثر بالأصوات المحيطة بها. ويؤكد هذا البحث على أن الطيور تتعلم الغناء مثل البشر! ويحدث في دماغها نشاط أثناء تعلم التغريد وهذا من عجائب الطيور فسبحان الله! ونجد تصديق هذا الكلام في قوله تعالى: "يا جبالُ أوّبي معه والطيرَ"(٨٨)؛ (انظر التعليق أدناه).

ويقول تعالى(٨٩): (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ). القرآن يقول: (إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) وعلماء الغرب يكررون هذا القول في أبحاثهم دون أن يشعروا! فهذا هو الدكتور Erich Jarvis أستاذ مساعد في علم الأعصاب، والذي قام بالتجارب على الطيور يقول بالحرف الواحد:

This type of vocal learning is similar to the way that humans learn to speak

---

http://55a.net/firas/arabic/index.php?page=show_det&id==51820&select_page

88- سورة سبأ ٢٢/١٠.

89- سورة الأنعام: ٦/٣٨.

أي أن هذا النموذج من التعلم الصوتي (عند الطيور) مشابه للطريقة التي يتعلم بها البشر الكلام!!

ويحاول العلماء الاستفادة من هذا الاكتشاف لعلاج الاضطرابات لدى البشر مثل اضطرابات التعلم والنطق. أي أن الله سخر لنا هذه الطيور لنتعلم منها ونستفيد فهي مسخرة لنا!

ويرى الباحث أن كل ما في الكون له لغة سواء أكان بشراً أم حيواناً أو جماداً. وهذا ما جاء في القرآن الكريم: "وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم"(٩٠). وقال تعالى على لسان داود عليه السلام: "ولقد ءاتينا داودَ مِنَّا فَضْلاً يا جبالُ أَوِّبي مَعهُ والطيرَ"(٩١). يقول الألوسي(٩٢) في شرح هذه الآية: "يا جبالُ أَوِّبي مَعهُ والطيرَ" أي رجِّعي معه التسبيح وردِّديه. ويروى أنه عليه السلام: كان إذا سبَّح سبَّحت الجبال مثل تسبيحه بصوت يسمع منها. ولا يعجز الله عز وجل أن يجعلها بحيث تسبِّح بصوت يسمع. وقد سبّح الحصى في كف نبينا عليه الصلاة والسلام وسمع تسبيحه، وكذا في كف أبي بكر رضي الله تعالى عنه... وقيل: كان داود عليه السلام ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تسعده بأصدائها... فكانت الجبال إذا سبّح سبَّحت؛ وإذا ناح ناحت؛ وإذا قرأ الزبور قرأت. حتى إن الماء ليتوقف عن الجريان عندسماع صوت داود عليه السلام كما ذكر القرطبي في تفسيره!

90- سورة الإسراء: ٤٤/١٧.

91- سورة سبأ ١٠/٢٢.

92- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، محمود شكري البغدادي، لا طبعة، بيروت: دار إحياء التراث العربي، لا تاريخ. ص ٢٨٧-٢٨٨.

تحدث اللغويون العرب القدامى عن تعليم الحيوانات. ولقد درّبوها وروّضوها؛ وعلموها الكلام واللغة أيضاً. وها هو الجاحظ يقول(٩٣): والحمام لا يقيمُ معهم في دورهم إلا بعد أن يثبِّتوه ويعلّموه، ويُرتِّبوا حاله ويدرِّجوه... وقد يُدَرَّبُ العصفورُ ويُثَبَّت فيستجيبُ من المكان البعيد، ويَثْبُتُ ويَدْجُن. فهو مما يثبُت ويعايش الناسَ، من تلقاء نفسه مرة، وبالتثبيت مرةً... وقد بَلَغني أن بعض ما يستجيب منها قد دُرِّبَ فرجع من مِيل. فأما الهداية من تلقاء نفسه فمن الفراسخ الكثيرة.

ويذكر الجاحظ خبراً آخر(٩٤) يقول فيه: ...إن السوداني القَنَّاص الجبلي... زعموا أنَّه بلغ من حذقه بتدريب الجوارح وتَضْرِيَتِها أنه ضرَّى ذئباً حتى اصطاد به الظِّباء وما دونها، صيداً ذريعاً، وإنه ألفه حتى رجع إليه من ثلاثين فرسخاً، وقد كان بعضُ العُمَّال سرقه منه... وأن هذا السوداني ضرَّى أسداً حتى اصطاد له الحمير فما دونها صيداً ذريعاً، وأنه ضرَّى الزَّنابيرَ فاصطاد بها الذِّبَّان.

ويذكر ابن خلدون(٩٥): أن العرب القدماء علموا الحيوانات اللغة والكلام، حيث يقول: "ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلاً جديداً تستعد به لقبول صناعة أخرى، ويتهيأ بها العقل لسرعة الإدراك للمعارف. ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحُمُرَ الإنسية والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب ندورها، ويعجزُ أهل المغرب عن فهمها. وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية يزيد الإنسان ذكاءً في عقله وإضاءةً في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس، إذ قدمنا أن النفس إنما تنشأ بالإدراكات

93- الحيوان، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، وضع حواشيه: محمد باسل عيون السود، الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م. المجلد ٣، ج٥، ص١١٢--١١٣.

94- الحيوان، الجاحظ، مصدر سابق، المجلد ٣، ج٥، ص٣٣١.

95- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، مصدر سابق، ج٣، ص١٠٢٣.

وما يرجع إليها من الملكات، فيزدادون بذلك كَيْساً لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية، فيظنه العامي تفاوتاً في الحقيقة الإنسانية وليس كذلك".

وبالإضافة إلى ذلك؛ يقول الجاحظ(٩٦):... إنّ الطائرَ والسُبع والبهيمةَ كلّما كان لسانُ الواحد منها أعرضَ كان أفصحَ وأبْيَنَ، وأحكى لما يُلَقَّن ولما يَسمَع، كنحو الببغاء والغُداف وغراب البَيْن، وما أشبه ذلك؛ وكالذي يتهيّأ من أفواه السنانير إذا تجاوبَت، من الحروف المقطّعة المشارِكة لمخارج حروف الناس. وأما الغنمُ فليس يمكنها أن تقول إلا "ما" ... وتقول الهند: لولا أن الفيل مقلوب اللسان لكان أنطقَ من كلّ طائر يتهيأ في لسانه كثير من الحروف المقَطّعة المعروفة. والقطا من الطير قد يتهيأُ من أفواهها أن تقول: قطا قطا. وبذلك سمِّيت. ويتهيأ من أفواه الكلاب العَيْنَاتُ والفاءاتُ والواواتُ. كنحو قولها: وَوْ وَوْ، وكنحو قولها: عَفْ عَفْ. قال الهيثم بنُ عُديّ: قيل لصبيّ: من أبوك؟ قال: وَوْ وَوْ ؛ لأن أباه كان يسمّى كلباً.

إن هذه الآيات والأحاديث وأقوال العلماء تدل دلالة واضحة على أن للحيوانات لغة وتفكيراً وعلماً، ويمكن للإنسان أن يتعرف عليها من خلال الممارسة والتدريب والخبرة. وأن العرب القدامى أبدعوا في تعليم الحيوانات أيما إبداع، لا كما يظن بعض العلماء في الوقت الحاضر من أنها وليدة القرن العشرين وقامت على أيدي العلماء الغربيين.

96- البيان والتبيين، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة ٧، ١٩٩٨م. ج١، ص ٦٢-٦٤. وللمزيد انظر؛

- في طرق تعليم اللغة العربية للأجانب، جاسم، جاسم علي، كوالا لمبور: إيه. إيس. نوردين. الطبعة الثانية، ٢٠٠١م. ص ١٦٢ وما بعدها. =

= مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، شرحه وقدم له: مفيد محمد قميحة، الطبعة الثانية، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م. ج١، ص١٩٥ ومابعدها، و٢٩٠ ومابعدها، ٣١٣ وما بعدها).

خامساً: لغة الإشارات والرموز

من موضوعات علم اللغة النفسي الحديث في القرن العشرين دراسة لغة الإشارات والرموز. فالغربيون ومن سار على نهجهم من العلماء العرب أجروا التجارب على هذه اللغة وعزوها ونسبوها إليهم. ولكننا ندحض هذا الزعم ونقول لهم: إن علماء العربية القدامى درسوا هذه الظاهرة في مؤلفاتهم. وإن القرآن الكريم أول ما نبأنا بهذه اللغة وتحدث عنها.

إن للغة الإشارة أنواعاً عديدة: منها: إشارة المعاقين، وإشارة الأصحاء، وإشارات المرور والطرق وغيرها فهذه كلها لغات غير منطوقة. وعلاوة على ذلك، تقول عطية(٩٧): إن الصورة لغة، والموسيقى لغة، والحركة لغة، والأشياء والأجسام لغة، والإشارات لغة. وما يهمنا هنا هو إشارة المعاقين وإشارة الأصحاء.

١ً: إشارة المعاقين:

فهي إشارة الصم البكم، ولديها مفاهيم خاصة لتعليمهم اللغة. وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم عن هذه الظاهرة.

قال تعالى: "إن شرَّ الدواب عند الله الصُّمُ البُكمُ الذين لا يعقلون. ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمَعَهم ولو أسمَعَهم لتولوا وهم معرضون"(٩٨).

وقال تعالى: "أفأنت تُسمِعُ الصُّمَّ الدعاء إذا ولَّوا مدبرين"(٩٩).

وقال تعالى: "أفأنت تُسمِعُ الصُّمَّ ولو كانوا لا يعقلون"(١٠٠).

97- علم النفس اللغوي، عطية، مرجع سابق، ص٢٨.

98- سورة الأنفال: ٨/٢٢-٢٣.

99- سورة النمل: ٢٧/٨٠.

100- سورة يونس: ١٠/٤٢.

فمن رحمة الله بالأصم أنه لا يسمعه كي لا يصبح جباراً عصياً، ولكي لا يمتد أذاه إلى الآخرين. فيُصِمُّهُ الله اتقاءً لشره على المجتمع الذي يعيش فيه. ولأن الله لا يَبْتَلِي مخلوقاً إلا ليُعينه. ولهذه اللغة إشارات خاصة بها تعتمد على حركة اليدين وتعبيرات الوجه وغيرها من التفاصيل(١٠١).

٢ً : إشارة الأصحاء

وتنقسم هذه الإشارة إلى قسمين: إشارة عضوية وإشارة أدبية. وقد تكون الإشارة العضوية للأصحاء بعقد اللسان ومنعه من الكلام مؤقتاً. وإن الشخص الذي تحصل له هذه العُقْلَة والحُبْسَة سليماً معافىً، ولكن الله يريد أن يظهر معجزاته فيه. وهذا ما نجده في القرآن الكريم عندما أنبأنا الخبير اللطيف على لسان زكريا عليه السلام ومريم بنت عمران الصدِّيقة. وفيما يلي تفصيل ذلك.

آ : الإشارة العضوية :

قال تعالى: "قالَ آيَتُكَ ألا تُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ إلا رَمزاً"(١٠٢).

يقول الطبري في تفسيرها(١٠٣): فلغة الرمز أو الإشارة هو أنك لا تقدر على الكلام إلا إيماء وإشارة. والرمز من معانيه عند العرب: الإيماء بالشفتين، وقد يستعمل في الإيماء بالحاجبين والعينين أحياناً، وذلك غير كثير فيهم. وقد يقال للخفي من الكلام الذي هو مثلُ الهمس بخفض الصوت: "الرمز"، ومنه قول جُؤيّة بن عائذ:

وكان تَكَلُّمُ الأبطالِ رَمْزاً وَهَمْهَمَةً لهُم مِثْلَ الهَدير

101- وللمزيد انظر؛ علم اللغة النفسي، العصيلي، مرجع سابق، ص٣٧١-٣٩٧.

102- سورة آل عمران ٣/ ٤١.

103- تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مصدر سابق، ص٢٥٩.

وقال بعضهم في تفسير الآية: آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا تحريكاً بالشفتين، من غير أن ترمز بلسانك الكلام. والرمز أن يشير بيده أو رأسه، ولا يتكلم.

ويقول الألوسي(١٠٤): إنما جعل عقل اللسان آية العلوق لتخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره وقضاء لحق النعمة كأنه قيل له: آية حصول النعمة أن تمنع عن الكلام إلا بشكرها، وأحسن الجواب على ما قيل ما أخذ من السؤال كما قيل لأبي تمام: لم تقول ما لانفهم؟ فقال: لم لا تفهم ما يقال؟ وهذا مبني على أن سؤال الآية منه عليه السلام: إنما كان لتلقي النعمة بالشكر، ولعل دلالة كلامه على ذلك بواسطة المقام وإلا ففي ذلك خفاء كما لا يخفى. والرمز هو الإشارة باليد والوحي بالرأس فقال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول الشاعر:

ما في السماء من الرحمن مرتمز إلا إليه وما في الأرض من وزر

وعن مجاهد أن الرمز هنا كان تحريك الشفتين، وقيل: الكتابة على الأرض، وقيل الإشارة بالمسبحة، وقيل الصوت الخفي، وقيل: كل ما أوجب اضطراباً في الفهم كان رمزاً وهو استثناء منقطع بناءً على أن الرمز الإشارة والإفهام من دون كلام.

وقال تعالى على لسان مريم بنت عمران(١٠٥): "فقولي إني نذرتُ للرحمن صوماً فلن أُكلِّمَ اليومَ إنسياً . فأَتَتْ به قومَها تحْملُهُ قالوا يا مريمُ لقد جِئْتِ شيئاً فَرِيّاً . يا أُخْتَ

104- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، مصدر سابق، ج٣، ص ١٥٠-١٥١.

105- سورة مريم: ١٩/٢٦-٢٩.

هرونَ ما كان أَبوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وما كانت أُمُّكِ بَغِياً . فَأَشَارَتْ إليه قالوا كيف نُكَلِّمُ من كان في المَهْدِ صَبِيًّا".

يقول الزمخشري في تفسيرها(١٠٦): إني نذرت صمتاً، وكانوا لا يتكلمون في صيامهم... وأمرها الله تعالى بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع البشر المتهمين لها في الكلام. وقيل أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة، وقيل سوّغ لها ذلك بالنطق (إنسياً)، أي أكلم الملائكة دون الإنس... فأشارت إليه أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه، وقيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليه السلام. وعن السدي: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا: لَسُخْرِيَّتِهَا بنا أشد علينا من زناها. وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان.

ترشدنا هذه الآيات إلى أن الله سبحانه وتعالى قد يجعل الإنسان عاجزاً عن الكلام ليظهر فيه معجزة من معجزاته. وليبرهن لنا على أن اللغة إما أن تكون بالكلام، وإما أن تكون بالإشارة. وأحياناً تكون الإشارة أبلغ من الكلمة وتعمل عملها بل وتكون الإشارة أحياناً أكثر إفادة من الكلمة المسموعة (انظر أدناه؛ الإشارة الأدبية).

ب : الإشارة الأدبية :

تؤدي الإشارة الأدبية معنىً بليغاً في النفس لا يمكن البوح به أمام الملأ؛ كي لا يتأذّى الآخرون منها أو يتأثروا. ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى: "يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور"[١٠٧]. أي يعلم نظريات الأعين، وإشاراتها، واستراق النظر، وما تكنه وتخفيه الصدور من أمور ولواعج وأسرار وغيرها، لا يمكن الجهر بها لاعتبارات عديدة. وإن للغة الإشارة مناقب وصفات نبيلة ونتائج حميدة لا

106- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، مصدر سابق.

107- سورة غافر: ٤٠/١٩.

يمكن للمرء أن يتفوّه بها حتى لا يتطيَّر الآخرون منها. ولهذا نجد لها خاصية أدبية رفيعة في تأدية المعنى والتعبير عن المقصود بشكل ودي وسري وبديع.

يناقش الجاحظ(١٠٨) هذه الصفة بشكل أدبي رفيع حيث يقول: وجميع أصناف الدَّلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياءَ لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد، ثم الخط، ثم الحالُ التي تسمّى نِصْبة. والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصِّر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورةٌ بائنةٌ من صورة صاحبتها، وحليةٌ مخالفةٌ لحليةِ أختها؛ وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، ومن أجناسها وأقدارها، وعن خاصِّها وعامِّها، وعن طبقاتها في السارّ والضارّ، وعما يكون منها لغواً بهرجاً، وساقطاً مُطَّرحاً. والذي يهمنا هنا هو الإشارة فقط.

فأما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعدَ الشخصان، وبالثوب وبالسّيف، وقد يتهدّد رافع السّيف والسّوط، فيكون ذلك زاجراً، ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً. والإشارة واللفظ شريكان، ونِعْمَ العونُ هي له، ونِعم الترجمانُ هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تُغنى عن الخطّ. وبعدُ فهل تَعدو الإشارةُ أن تكون ذات صورةٍ معروفةٍ، وحِلْية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالتها. وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترُها بعضُ الناسِ من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارةُ لم يتفاهم الناسُ معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتَّة. وقد قال الشاعر في دِلالات الإشارة:

أشارتْ بطَرْفِ العينِ خِيفةَ أهلها إشارةَ مذْعورٍ ولم تتكلَّمِ

فأيقنتُ أنَّ الطرفَ قد قالَ مَرحباً وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيَّمِ

وقال الآخر:

108- البيان والتبيين، الجاحظ، مصدر سابق، ج١، ص ٧٦-٧٩.

وللقلب على القلب دليلٌ حينَ يلقاهُ
وفي الناس من الناس مقاييسُ وأشباهُ
وفي العين غنىً للمر ءِ أن تنطقَ بأفواه

وقال الآخر:

ترى عينُها عَيْنِي فتعرف وَحْيَها وتعرف عيني ما به الوَحْيُ يرجعُ

وقال الآخر:

العينُ تُبدي الذي في نفس صاحبها من المحبَّة أو بُغض إذا كانا
والعينُ تنطقُ والأفواهُ صامتةٌ حتى ترى من ضمير القلب تبياناً

هذا ومبلغُ الإشارة أبعَدُ من مبلغ الصَّوت. فهذا أيضاً باب تتقدم فيه الإشارةَ الصوتَ.

ويقول ابن قتيبة(١٠٩) عن الاستدلال بالعين والإشارة والنُّصبة.

رُبَّ طَرْفٍ أفصح من لسان"

وقال آخر:

أما تُبْصِرُ في عَيْنَيـ ـيَ عُنوانَ الذي أُبدي

ومن العلماء الغربيين والعرب المعاصرين الذين تناولوا هذه الظاهرة فيجوتسكي(١١٠): الذي تحدث عن لغة الإشارات عند الصم البكم. والحمداني الذي تحدث عن لغة الإشارات وأطلق عليها اسم مصاحبات اللغة. وتضم هذه المصاحبات: تعبيرات بالوجه والجسم وحركات اليدين إضافة لتعبيرات بالعيون وتغيير في الصوت وينشأ قسم من هذه المصاحبات نتيجة للفطرة، بينما تختلف إشارات أخرى باختلاف المجتمع...

109- عيون الأخبار، ابن قتيبة، أبو محمد مسلم بن قتيبة الدينوري، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م. ج٢، ص ١٩٦-١٩٧.

110- التفكير واللغة، تأليف: ل.س. فيجوتسكي، مرجع سابق، ص١٩١.

- علم نفس اللغة من منظور معرفي، الحمداني، مرجع سابق، ص ٢٢١ وما بعدها.

وتقول عطية(١١١) نقلاً عن لانجر (Langer: 1954): إن هناك فرقاً بين اللغة اللفظية، والوسائل غير اللفظية من حيث الطريقة التي تتم بها فهم المعاني التي تتضمنها كل منهما... فاللغة اللفظية ليست فقط هي اللغة التي يستخدمها الفرد في التعبير عما يدور في ذهنه من أفكار، وإنما يحتاج الفرد إلى أكثر من لغة في التعبير عن نفسه، ومن هنا كانت اللغة غير اللفظية ذات أهمية كبرى في حياة الفرد عامة. و لا تقل أهمية عن اللغة اللفظية، فكلها أنواع من التعبير بالنسبة إلى الإنسانية جمعاء.

سادساً: أمراض الكلام

إن أمراض الكلام وأسبابها وطرق علاجها هي من الموضوعات المهمة التي عالجها علم اللغة النفسي الحديث. ومن الذين تحدثوا عن هذه الظاهرة من العلماء العرب القدامى الجاحظ والنويري وابن سيده والثعالبي والمبرد وغيرهم كثير. وإليكم بيان ذلك بالتفصيل.

آ – الأمراض اللغوية

لقد شرح الجاحظ(١١٢) الأمراض اللغوية وأسبابها وطرق علاجها بشكل مفصَّل ومركَّز. ومن هذه الأمراض اللغوية التي تحدث عنها مايلي:

العِيُّ والحَصَر. وقديماً ما تَعَوَّذُوا بالله من شرهما، وتضرَّعوا إلى الله في السلامة منهما. قال بشار الأعمى:

وعِيُّ الفَعَالِ كَعِيِّ المقال وفي الصَّمت عِيٌّ كَعِيِّ الكَلِمْ

ولأنهم يجعلون العجزَ والعِيَّ من الخُرَق، كانا في الجوارح أم في الألسنة. يقول زيَّان بن سيار:

111- علم النفس اللغوي، عطية، مرجع سابق، ص٢٩ وما بعدها. و:

- **Langer, S., Philosophy in a New Key. New York: The New American Library, 1954.**

112- البيان والتبيين، الجاحظ، مصدر سابق، ج١، ص ٣ وما بعدها.

ولسنا كأقوامٍ أجدُّوا رِيَاسةً يُرَى مالُها ولا يُحَسُّ فَعالُها
يُريغون في الخِصْبِ الأمورَ ونفعهمْ قليلٌ إذا الأموالُ طال هُزالُها
وقُلْنَا بلا عِيٍّ وسْسَّنا بطاقةٍ إذا النارُ نارُ الحربِ طال اشتعالها

وقالوا في الصمت كقولهم في المنطق، قال أُحَيْحَة بن الجُلاح:

والصمتُ أجملَ بالفتى مالم يكن عِيٌّ يَشِينُهْ
والقول ذو خَطَل إذا مالم يكن لُبٌّ يُعينُهْ

ويذكر الجاحظ(١١٣) بعض هذه الأمراض اللغوية حيث يقول: وليس اللَّجلاج والتَّمتام، والألثغ والفأفاء، وذو الحُبْسَة والحُكلة والرُّتَّةِ وذو اللَّففِ والعجلة، في سبيل الحَصِر في خطبته، والعَيِيُّ في مناضلة خصومه، كما أن سبيل المُفْحَم عند الشعراء، والبكيء عند الخطباء، خلافُ سبيل المسْهَب الثَّرثار، الخَطِل المِكْثَار.

وتحدث كذلك عن العيوب الكلامية(١١٤) ومنها: العييُّ والبكيءُ، والحَصِر والمُفحَمُ، والخَطِل والمُسهبُ، والمتشدِّقُ، والمتفيهقُ، والمهمارُ، والثرثارُ، والمِكثارُ والهمَّارُ، ولِمَ ذكروا الهُجْرَ والهَذَرَ، والهَذَيانَ، والتخليط وقالوا: رجلٌ تِلْقَاعَة، وفلان يتلَهْيَع في خطبته... ثم اعلم أنَّ أقبحِ اللحن لحنُ أصحاب التقعير والتقعيب، والتشديق والتمطيط والجَهْوَرةِ والتفخيم.

وممن تحدثوا عن عيوب الكلام وأمراضه كذلك النويري(١١٥): لقد تحدث عن بعض أمراض الكلام وعيوب اللسان فمنها: العُقْلة: وهي التواء اللسان عند الكلام؛ والحُبْسَةُ: تعذُّرُ النطق... والرُّتَّةُ: اتصال بعض الكلام ببعض دون إفادة؛ والطمطمة: أن يكون الكلامُ شبيهاً بكلام العجم... واللُّكنةُ: إدخال بعض

113- البيان والتبيين، الجاحظ، مصدر سابق، ج١، ص ١٢-١٣.

114- البيان والتبيين، الجاحظ، مصدر سابق، ج١، ص١٤٤-١٤٦

115- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، تحقيق: مفيد قميحة و حسن نور الدين، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م. المجلد٢، ج٣، ص٣٤٩-٣٥٢.

حروف العرب في حروف العجم... وهي إبدال الهاء حاءً، وانقلابُ العين همزة... والخُنَّةُ: ضرب منها؛ والترخيم: حذف بعض الكلمة لتعذّر النطق بها؛ واللُّثغة: إبدال ستة حروف بغيرها، وهي الهمزة والراء والسين والقاف والكاف واللام...الخ

وتحدث ابن سيده في المخصص عن عيوب الكلام "المجلد الأول، السفر الثاني، باب الفصاحة، من الصفحة ١١٢ ١٤٨" فهو معجم لغوي نفسي في أمراض الكلام فقد حوى تقريباً كافة أنواع الأمراض الكلامية فيرجى العودة إليه لمن أراد المزيد.

ومن الأمراض اللغوية التي تحدث عنها مثلاً(١١٦): الغنن والغنة والأغن: الذي يخرج كلامه في لهاته وهو الساقط الخياشيم وهي الغنة. والتهتهة: التواء في اللسان وفيها الهتهتة وته ته حكاية المتهته. والثغثغة: رتة في اللسان وثقل. والظأظأة: حكاية بعض كلام الأعلم الشفة الأهتم الثنايا العلى. التغتغة: كلام الشيخ سقطت أسنانه فلم يفهم كلامه. المقمقة: المُقامِق: المتكلم بأقصى حلقه، وفيه مقمقة. كنب: وكنب عليه لسانه: فلم ينطق. الخ.

ومن العيوب التي يذكرها المبرد(١١٧)مايلي:

الاستعانة: هو أن يدخل في الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه ليصحح به نظماً أو وزناً إن كان في شعر، أو ليذكر به ما بعده إن كان في كلام منثور. الغمغمة: تسمع الصوت ولا يتبين لك تقطيع الحروف. التمتمة: التردد في التاء. الخ.

وأشار الثعالبي(١١٨) كذلك إلى بعض العيوب اللسانية والكلامية والعوارض التي تُعرَضُ لألسنة العرب. فمن العيوب التي ذكرها مايلي:

116- المخصص، ابن سيده، أبو الحسين علي بن اسماعيل، لا طبعة، بيروت: دار الكتب العلمية، لا تاريخ. المجلد١، السفر٢، ص١١٨-١٢٤.

117- الكامل في اللغة والأدب، المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاته، لا طبعة، القاهرة: مطبعة نهضة مصر، لا تاريخ. ج١، ص٣٠؛ ج٢، ص٢٢١.

اللَّكنَةُ والحُكلَةُ: عُقدةٌ في اللسان وعُجمَة في الكلام. الفأفأة: أن يتردد في الفاء، التَّمْتَمَةُ أن يتردد في التاء. اللفف: أن يكون في اللسان ثِقَلٌ وانعِقادٌ، اللَّيَغُ: أن لا يُبِينَ الكلام. اللَّجْلَجَةُ: أن يكون فيه عِيٌّ وإدخال بعض الكلام في بعض. الخَنْخَنَةُ: أن يتكلم من لَدُنْ أَنْفِه، ويقال: هيَ أن لا يُبَيِّنَ الرَّجُلُ كلامَهُ فَيُخَنْخِنُ في خَياشِيمِه. الخ.

ومن العوارض التي تعرض لألسنة العرب مثلاً: الكشكشة لبني تميم: ما الذي جاء بش؟ أي بك، الكسكسة في لغة بكر، وهي إلحاقهم لكاف المؤنث سيناً عند الوقف، كقولك: أَكْرَمْتُكِس، أي أكرمتكِ، والعنعنة في لغة تميم، وهي إبدالُهم العينَ من الهمزة كقولهم: ظَنَنْتُ عَنَّكَ ذاهبٌ؛ أي أَنَّكَ ذاهِبٌ. الخ. وللمزيد عن هذه العوارض راجع ابن جني(١١٩).

ومن العلماء المعاصرين الذين تحدثوا عن أمراض الكلام: المنصور(١٢٠): فقد تحدثت عن عيوب الكلام وطرق علاجه بشكل مفصَّل عند العلماء العرب القدامى؛ والسيد والحمداني وبن عيسى ومنصور وغيرهم كثير.

ب : أسباب العيوب الكلامية

118- فقه اللغة وسر العربية، الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل، تحقيق فائز محمد، مراجعة إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي: بيروت، الطبعة ١، ١٩٩٣م. ص ١١٠--١١١.

119- الخصائص، ابن جني، مصدر سابق، ج١، ص ٣٩٨-٤٠٠.

120- عيوب الكلام دراسة لما يعاب في الكلام عند اللغويين العرب، المنصور، وسمية، جامعة الكويت: حوليات كلية الآداب، الرسالة الثامنة والثلاثون، الحولية السابعة، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م. وانظر كذلك:

- علم النفس اللغوي، السيد، مرجع سابق، ص١٢٢-١٢٤.

- علم نفس اللغة من منظور معرفي، الحمداني،مرجع سابق، ص١٥٨.

- محاضرات في علم النفس اللغوي، بن عيسى، حنفي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر، الطبعة٢، ١٩٨٠م. ص٢٩٨-٣٠٧.

- علم اللغة النفسي، منصور، عبد المجيد سيد أحمد، عمادة شؤون المكتبات: جامعة الملك سعود:الرياض - السعودية، الطبعة ١، ١٩٨٢م. ص٢٨١ وما بعدها.

هناك ثلاثة أسباب رئيسية هامة للعيوب الكلامية التي ذكرها اللغويون العرب القدامى، وهي كما يلي: لغوية نفسية، واجتماعية، وعضوية.

أولاً: الأسباب اللغوية النفسية

١ـ العِيُّ والحَصَر

يذكر الجاحظ(١٢١): أن من الأسباب اللغوية والنفسية لأمراض الكلام: العِيُّ والحَصَر. وقديماً ما تَعَوَّذُوا بالله من شرهما، وتضرَّعوا إلى الله في السلامة منهما. وقال النَّمِر بن تولب:

أعِذْنِي ربِّ من حَصَرٍ وعِيٍّ ومن نَفْسٍ أُعالجُها عِلاجَا

وقال الهذلي:

ولا حَصِرٌ بخُطبَتِهِ إذا ما عَزَّتِ الخُطَبُ

وقال مَكِّيُّ بن سَوادة:

حَصِرٌ مُسْهَبٌ جرِيءٌ جَبانٌ خَيْرُ عِيِّ الرجال عِيّ السُّكوتِ

وسأل الله عز وجل موسى بنُ عمران، عليه السلام، حين بعثه إلى فرعونَ بإبلاغ رسالته، والإبانةِ عن حجَّته، والإفصاحِ عن أدلَّته، فقال حين ذكر العُقْدة التي كانت في لسانه، والحُبْسَة التي كانت في بيانه: "واحْلُلْ عُقْدَةً من لساني يَفقَهُوا قولي"(١٢٢).

وأنبأنا اللهُ تعالى عن تعلُّق فرعونَ بكل سبب، واستراحتِهِ إلى كل شَغَب، ونبَّهنا بذلك على مذهب كلِّ جاحد معاند، وكلِّ مُحتالٍ مكايد، حين خبَّرنا بقوله: "أَمْ أنا خَيْرٌ من الذي هو مَهِينٌ ولا يكادُ يبين"(١٢٣). يريد فرعون أن يتفضّل على موسى عليه السلام بأنه أفصح منه وأفضل بياناً.

121- البيان والتبيين، الجاحظ، مصدر سابق، ج١، ص٣-١٢.

122- سورة طه: ٢٠/٢٧.

123- سورة الزخرف: ٤٣/٥٢.

وقال موسى صلى الله عليه وسلم: "وأخي هَارونُ هُو أفصحُ مني لساناً فأرسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُني"(١٢٤). وقال تعالى: "ويَضيقُ صَدْرِي ولا يَنْطَلِقُ لِسَانِي"(١٢٥). رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجّة، والمبالغة في وضوح الدّلالة: لتكون الأعناقُ إليه أَمْيَلَ، والعقولُ عنه أفهمَ، والنفوسُ إليه أسرعَ، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويَبْلغ أفهامهم على بعض المشقة.

وضرب الله عز وجل مثلاً لِعِيِّ اللسان ورداءة البيان، حين شبّه أهله بالنساء والولدان: فقال تعالى: "أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الْحِلْيَةِ و هوَ في الخِصَام غَيْرُ مُبين"(١٢٦). أي في مخاصمة أعدائه لا يكاد يُفهم قوله .

٢ ـ اللُّثغة:

اللُّثغة مرض لغوي يصيب بعضَ الناسِ عامتهم وخاصتهم. ولهذا نرى الجاحظ(١٢٧): أشار إليها وتحدث عمن وصف بها قائلاً: "ولما علم واصلُ بنُ عطاء أنّه ألثغُ فاحش اللَّثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع... أنه كان داعيةَ مقالةٍ ورئيسَ نحلة". قال قطرب: أنشدني ضِرار بن عمرو قولَ الشاعر في واصل بن عطاء:

ويجعل البُرَّ قمحاً في تصرُّفه وجانَبَ الراءَ حتَّى احتال للشِّعرِ
ولم يُطِقْ مطَراً والقولُ يُعجِلُه فعاذَ بالغيث إشفاقاً من المَطَرِ

قال وسألت عُثمان البُرِّي: كيف كان واصلٌ يصنع في العدد ... والشهور؟ فقال: ما لي فيه قولٌ إلا ما قال صفوان:

مُلَقَّنٌ ملهَمٌ فيما يُحاوله جَمٌّ خواطرُه جوَّابُ آفاقِ

وأنشدني ديسمٌ قال: أنشدني أبو محمد اليزيديّ:

124- سورة القصص ٣٤/٢٨.

125- سورة الشعراء: ١٣/٢٦.

126- سورة الزخرف: ١٨/٤٣.

127- البيان والتبيين، الجاحظ، مصدر سابق، ج١، ص١٤؛ ٢١-٢٢.

وخَلَّةُ اللفظ في الياءات إن ذُكِرَت كخَلَّةِ اللفظ في اللاماتِ والألفِ

وخَصْلَة الرَّاء فيها غيرُ خافيةٍ فاعرِفْ مواقعَها في القول والصُّحُفِ

ولقد حدا الأمر ببعضهم إلى أن طلق أزواجه. ومنهم أبو رمادة طلق امرأتَه حين وجدَها لثغاء، وخاف أن تجيئه بولد ألثغ. فقال(١٢٨):

لَثغاء تأتي بحِيَفْس ألثغِ تَميسُ في المَوْشِيِّ والمصبَّغِ

الحِيَفْس: الولد القصير الصغير.

ويرى الجندي(١٢٩) أن اللُّثغة: "... قد يرثها الطفل عن آبائه، ويرثها من جيله ثم يرثها منه جيل آخر، حتى تصبح اللُّثغة سُنَّةً فيهم، بل تكون صواباً في جيل المستقبل بينما هي نفسها في الجيل الأول كانت آفة نطقية محط ازدراء الناس واحتقارهم والدليل على ذلك تحير علماء اللغة بين اللغة واللُّثغة... وابن سيده لا يدري أن المرمريس - وهو الداهية لغة مستقلة عن المرمريت أم لُثغة... وقد يمكن أن تتسم شخصية عظيمة باللُّثغة فتقتدي بها الطبقات الأخرى المحيطة بها وتقلدها أولاً في تلك اللُّثغة؛ وبعد مرور زمن يصبح هذا الانحراف أو تلك اللُّثغة مقبولة، وهذا يشبه (المودة) التي تسري من أعلى المجتمع إلى أدناه".

وأكَّد هذا القول ابن خلدون(١٣٠) بقوله: إن المغلوبَ مُولَعٌ أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيِّه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده. والعامة على دين الملِكِ. ولذلك ترى المغلوبَ يتشبَّهُ أبداً بالغالبِ في مَلبَسِه ومركَبِهِ وسلاحه في اتِّخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله...

128- المصدر نفسه، ج١، ص٧٥.

129- اللهجات العربية في التراث، الجندي، أحمد علم الدين، الدار العربية للكتاب: ليبيا-تونس، الطبعة بدون، ١٩٧٨م. القسم الأول، ص٣٥٦.

130- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، مصدر سابق، ج٢، ص٥١٠-٥١١.

ثانياً: أسباب اجتماعية

١ـ الصَّمْتُ والوَحْدَة (العُزْلَة):

يذكر الجاحظ(١٣١) أن الصمت عيب من عيوب الكلام. حيث يروي عن أبي عبيدة أنه قال: إذا أدخلَ الرَّجلُ بعضَ كلامه في بعض فهو أَلفُّ، وقيل بلسانه لَفَفٌ . ويفسر الجاحظ السبب في هذا اللفف أن الإنسان إذا جلس وَحْدَهُ ولم يكن له من يكلّمه، وطال عليه ذلك، أصابه لفَف في لسانه. وأنشد الراجز:

كأنَّ فيه لَفَفاً إذا نَطَقْ من طُولِ تحبيسٍ وهَمٍّ وأَرَقْ

وكان يزيد بن جابر، قاضي الأزارقة بعد المُقَعْطِل، يقال له الصَّموت: لأنه لما طال صمتُه ثَقُلَ عليه الكلام، فكان لسانُه يلتوي، ولا يكادُ يُبين، من طول التفكر ولزوم الصَّمت.

ثالثاً: أسباب عضوية

١ـ سقوط الأسنان

يذكر الجاحظ(١٣٢) هنا أن سقوط بعض الأسنان يؤدي إلى الخطأ، وأن سلامةَ اللفظ من سلامة الأسنان، قال الشاعر:

قَلَّت قوادحُها وتمَّ عديدُها فله بذاك مَزِيَّةٌ لا تنكرُ

ويروى "صحَّت مخارجُها وتمَّ حروفها". المزيَّة: الفضيلة. القادح: أُكال يقع في الأسنان. والإنسان إذا تمت أسنانُه في فمه، تمَّت له الحروف، وإذا نقصت نقصت الحروف.

قالوا: ولم يتكلم معاويةُ على منبر جماعةٍ منذ سقطَتْ ثناياه في الطِّست. وقال أبو الحسن المدائني: لما شَدَّ عبدُ الملك أسنانَه بالذهب قال: " لولا المنابر والنِّساء، ما باليتُ متى سقطَتْ".

131- البيان والتبيين، الجاحظ، مصدر سابق، ج١، ص٣٨.

132- المصدر نفسه، ج١، ص٥٨-٦١.

ج: علاج العيوب النطقية

هناك بعض التوجيهات العلمية والتدريبات العملية التي يذكرها الجاحظ، وابن خلدون في هذا المضمار للتغلب على المشاكل النطقية. ومن هذه الإرشادات مايلي:

أولاً: المحاولة الجادة والتدريب والتمرين والممارسة لإخراج الحروف على الصحة قدر المستطاع.

يقول الجاحظ(١٣٣): رامَ أبو حذيفةَ إسقاط الراء من كلامه، وإخراجَها من حروف منطِقِه؛ فلم يزل يكابد ذلك ويغالبُه، ويناضله ويساجله، ويتأتَّى لستَره والراحةِ من هُجْنَتِه، حتَّى انتظم له ما حاول، واتَّسق له ما أمَّل... وكانت لُثْغة محمد بن شبيب المتكلم، بالغين، فإذا حمل على نفسه وقوَّم لسانه أخرج الراء. فالمحاولة هنا هي خير دليل على تقويم النطق السليم.

ويقول الجاحظ(١٣٤) في موضع آخر أيضاً: وذلك عندما عالج مشكلة اللثغة: فأما التي على الغين فهي أيسرهنَّ، ويقال إن صاحبها لو جَهدَ نفسَه جَهْدَه، وأحدَّ لسانه، وتكلف مخرج الراء على حقها والإفصاح بها، لم يك بعيداً من أن تجيبه الطبيعة، ويؤثِّر فيها ذلك التعهد أثراً حسناً... وكان إذا شاء أن يقول عَمْرو، ولعمري، وما أشبه ذلك على الصحة قاله، ولكنه كان يستثقل التكلُّفَ والتهيُّؤَ لذلك، فقلت له: إذا لم يكن المانعُ إلا هذا العذرَ فلستُ أشكُّ أنك لو احتملت هذا التكلُّف والتَّتبُعَ شهراً واحداً أنَّ لسانك كان يستقيم... فإذا حمَلَ على نفسه وقوَّم لسانَه أخرج الراء على الصحة فتأتَّى له ذلك، وكان يَدَعُ ذلك استثقالاً. أنا سمعت ذلك منه.

133- البيان والتبيين، الجاحظ، مصدر سابق، ج١، ص١٥.

134- المصدر نفسه ج١، ص٣٦-٣٧.

ويقول أيضاً(١٣٥): "رأسُ الخَطابة الطبعْ، وعَمُودُها الدُّربة، وجناحاها رواية الكلام، وحَلْيُها الإعراب، وبهاؤُها تَخيُّر الألفاظ، والمحبَّة مقرونةٌ بقلّة الاستكراه".

يرشدنا الجاحظ هنا: إلى أنه من أراد أن يكون فصيحاً بليغاً بعيداً عن الخطأ والانحراف في الكلام؛ عليه أن يتحلّى بالخطابة وعمودُها الدُّربة وجناحاها رواية الكلام. ويؤكد هنا على أهمية الدربة في الكلام والمران عليه؛ وأن يخرج الحروف على الصحة وألا يستسلم للهوينا ويخلد إلى الخطأ. فالعرب كانوا يُروُّون صبيانهم الأرجاز، ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع اللسان، وتحقيق الإعراب لأن ذلك يفتق اللهاة ويفتح الجرم. ثم يقول: " واللسان إذا كثر تقليبه رق ولان وإذا أقللت تقليبه وأطلت إسكاته جسا وغلظ"(١٣٦).

وهذا ما يؤكده ابن خلدون أيضاً(١٣٧) من أن المران والتدريب والحفظ والتكرار للكلام هو خير طريق للتغلب على الصعوبات اللفظية حيث يقول: وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية؛ فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها... ويقول في موضع آخر أيضاً: وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه ...

فالجاحظ وابن خلدون: يؤكدان على أن التكرار والتمرين والتدريب والحفظ لكلام العرب؛ يُعْرِب اللسان ويزيده فصاحة ويُبعِده عن الصمت واللحن والفساد.

ثانياً: سقوط جميع الأسنان

135- البيان والتبيين، الجاحظ، مصدر سابق، ج١، ص٤٤.

136- المصدر نفسه، ج١، ص٦٢؛ ٢٧٢.

137- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، مصدر سابق، ج٣، ص١٠٢١؛١٢٨٩؛ وانظر كذلك الصفحات:١٢٥٨ و ١٢٩١.

يقول الجاحظ(١٣٨): إن سقوط جميع الأسنان أصْلَحُ في الإبانة عن الحروف، منه إذا سقط أكثرها، وخالف أحدُ شطريها الشَّطر الآخر.

وعلاوة على ذلك، يقول(١٣٩): "لو عرف الزنجي فرط حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف، وتكميل آلة البيان، لما نزع ثناياه" و "أن سلامة اللفظ لسلامة الأسنان، فقال الأحنف بن قيس:

أنا ابنُ الزَّافِرِيَّة أرضَعَتْني بثدي لا أجَدَّ ولا وخيمِ

أتَمَّتْني فلم تنقص عظامي ولا صَوتي إذا جَدَّ الخُصومُ

قال: إنما عنى بقوله عظامي أسنانَه التي في فمه، وهي التي إذا تَمَّت تمت الحروفُ، وإذا نقصت نقصت الحروف.

وإن الجمع بين الطعام الحار والشراب البارد يؤذي الأسنان ويؤدي إلى سقوطها. يقول الجاحظ(١٤٠) معقباً على ذلك: وكان سفيان بن الأبرد الكلبي كثيراً ما يجمع بين الحارّ والقارّ، فتساقطت أسنانه جُمَعُ، وكان في ذلك كلّه خطيباً بيِّناً.

وقال أهل التجربة(١٤١): إذا كان في اللحم الذي فيه مغارزُ الأسنان تشميرٌ وقِصَر سَمْك، ذهبت الحروفُ وفسدَ البيان. وإذا وجد اللسانُ من جميع جهاته شيئاً يقرعهُ ويصكُّه، ولم يمرَّ في هواءٍ واسعِ المجال، وكان لسانهُ يملأ جَوْبَة فمِه، لم يضرَّه سقوطُ أسنانه إلا بالمقدار المغتفَر، والجزء المحتَمل.

وقالوا: الدليل على أن من سقط جميعُ أسنانه أنَّ عِظَم اللسان نافعٌ له، وقد ضرب الذين زعموا أن ذهاب جميع الأسنان أصلحُ في الإبانة عن الحروف من ذهاب الشطر أو الثلثين، في ذلك مثلاً.

138- البيان والتبيين، الجاحظ، مصدر سابق، ج١، ص٦١.

139- المصدر نفسه، ج١، ص٥٨-٥٩.

140- المصدر نفسه، ج١، ص٦١.

141- المصدر نفسه، ج١، ص٦١-٦٤.

الخاتمة

اتضح لنا من خلال هذا العرض؛ أن اللغويين العرب القدامى بحثوا موضوعات علم اللغة النفسي بشكل دقيق وأصيل. وأن هذا العلم لم يكن جديداً عليهم أو أنه وليد القرن العشرين، كما يزعم بعض العلماء العرب المعاصرين وغيرهم من الأجانب. وأن العلماء الغربيين ساروا على منوال العرب في هذا الميدان؛ وإن لم يشيروا صراحة إلى تلك الجهود اللغوية العربية القديمة، أو يذكروهم بشيء من هذا، وهذا هو ديدنهم عادة. ولذلك يحق لنا أن نقول: إن اللغويين العرب القدامى لم يسبقوا اللغويين الغربيين إلى دراسة هذه الموضوعات اللغوية النفسية فحسب، بل وكان تأثيرهم واضحاً في أرائهم وأفكارهم عن اللغة.

ويمكننا الآن - من جهة ثانية - أن نعري آراء وأفكار تشومسكي من الأصالة والابتكار، وأن نعيدها وننسبها إلى مؤصليها ومبتكريها من اللغويين العرب القدامى. وإن ما جاء به تشومسكي من أفكار جديدة في علم اللغة يرجع الفضل فيها إلى العلماء العرب القدماء الذين أصّلوا تلك الأفكار ونشروها في مؤلفاتهم الخالدة والشاهدة على ذلك. وإنه تأثر بأفكارهم بطريقة غير مباشرة وذلك من خلال الترجمة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أسس تعلم اللغة وتعليمها، براون، دوجلاس، ترجمة عبده الراجحي وعلي شعبان. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٤م.
- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، خرما، نايف، الكويت: عالم المعرفة، ١٣٩٨هـ.

- الأمن الإيراني يصطاد طائراً يتجسس على "نطنز النووي"، ستار كريمي، صحيفة عكاظ السعودية، (الثلاثاء ٢٢/١٠/١٤٢٩هـ) ٢١/ أكتوبر/٢٠٠٨ العدد : ٢٦٨٣، الموقع الإلكتروني:
http://www.okaz.com.sa/okaz/osf/20081021/Con20081021235108.htm

- البيان والتبيين، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة ٧، ١٩٩٨م. المتوفى سنة ٢٥٥هـ.

- تأثير الخليل بن أحمد الفراهيدي والجرجاني في نظرية تشومسكي، جاسم علي جاسم، مخطوط.

- التحجر في لغة متعلمي اللغة العربية الناطقين بغيرها، العصيلي، عبدالعزيز بن ابراهيم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١، م٣٣، ربيع الآخر، ١٤٢٦هـ.

- تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، هذبه وقربه وخدمه: صلاح عبد الفتاح الخالدي، خرج أحاديثه: ابراهيم محمد العلي، الطبعة ١، دمشق: دار القلم، بيروت: دار الشامية، ١٩٩٧م. المتوفى سنة ٣١٠هـ.

- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الزحيلي، وهبه، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، ١٩٩١م.

- التفكير واللغة، تأليف: ل.س. فيجوتسكي، تقديم: لوريا ليونييف. برونر، تعقيب: جان بياجيه، ترجمة: دكتور طلعت منصور، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٦م.

- الحيوانات تكذب: سبحان الله. الكحيل، عبد الدائم، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، البريد الإلكتروني: www.kaheel7.com .الموقع الإلكتروني:

- http://55a.net/firas/arabic/index.php?page=show_det&id=1820&select_page=5

- الحيوان، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، وضع حواشيه: محمد باسل عيون السود، الطبعة الثانية، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م. المتوفى سنة ٢٥٥هـ.

- الخصائص، ابن جني، أبو الفتح عثمان، تحقيق: محمد علي النجار، الجزء الأول، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٥٢م. المتوفى سنة ٣٩٢هـ.

- دراسة في علم اللغة الاجتماعي، جاسم، زيدان على، مراجعة وتدقيق زيد علي جاسم و جاسم علي جاسم، كوالا لمبور: بوستاك أنتارا، الطبعة ١، ١٩٩٣م.

- دلائل الإعجاز، الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، لا طبعة، القاهرة: مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، لا تاريخ. المتوفى سنة ٤٧٤هـ.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، محمود شكري البغدادي، لا طبعة، بيروت: دار إحياء التراث العربي، لا تاريخ. المتوفى سنة ١٢٧٠هـ.

- سر الفصاحة، الخفاجي، أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الحلبي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م. المتوفى سنة ٤٦٦هـ.

الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، أبوالحسين أحمد ابن فارس بن زكريا، علق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م. المتوفى سنة ٣٩٥هـ.

علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، السعران، محمود، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢.

علم اللغة الاجتماعي: نشأته وموضوعه، جاسم، زيدان علي، مجلة الدراسات العربية والإسلامية، بروني دار السلام، المجلد ٣، العدد ٣، نوفمبر ١٩٩٢.

علم اللغة النفسي، العصيلي، عبدالعزيز بن ابراهيم، الطبعة الأولى، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

علم اللغة النفسي، منصور، عبد المجيد سيد أحمد، عمادة شؤون المكتبات: جامعة الملك سعود :الرياض – السعودية، الطبعة ١، ١٩٨٢م.

علم نفس اللغة من منظور معرفي، الحمداني، موفق، الطبعة الثانية، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ٢٠٠٧م.

علم النفس اللغوي، السيد، محمود أحمد، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٥ -١٩٩٦م.

علم النفس اللغوي، عطية، نوال محمد، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م.

عون المعبود على شرح سنن أبي داود، الصديقي، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، طبعة مراجعة ومدققة: لمحمد ناصر الدين الألباني،

اعتنى به: أبو عبدالله النعماني الأثري، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، المجلد الثاني، ٢٠٠٥م.

- عيوب الكلام دراسة لما يعاب في الكلام عند اللغويين العرب، المنصور، وسمية، جامعة الكويت: حوليات كلية الآداب، الرسالة الثامنة والثلاثون، الحولية السابعة، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

- عيون الأخبار، ابن قتيبة، أبو محمد مسلم بن قتيبة الدينوري، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م. المتوفى سنة ٢٧٦هـ.

- فقه اللغة وسر العربية، الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل، تحقيق فائز محمد، مراجعة إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي: بيروت، الطبعة ١، ١٩٩٣م. المتوفى سنة ٤٢٩هـ.

- في طرق تعليم اللغة العربية للأجانب، جاسم، جاسم علي، كوالا لمبور: إيه. إيس. نوردين. الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.

- الكامل في اللغة والأدب، المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاته، لا طبعة، القاهرة: مطبعة نهضة مصر، لا تاريخ. المتوفى سنة ٢٨٥هـ.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر، تحقيق وتعليق ودراسة:عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨م. المتوفى سنة ٥٣٨هـ.

- اللهجات العربية في التراث، الجندي، أحمد علم الدين، الدار العربية للكتاب: ليبيا -تونس، الطبعة بدون، ١٩٧٨م.

- محاضرات في علم النفس اللغوي، بن عيسى، حنفي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر، الطبعة٢، ١٩٨٠م.

المخصص، ابن سيده، أبو الحسين علي بن اسماعيل، لا طبعة، بيروت: دار الكتب العلمية، لا تاريخ. المتوفى سنة ٤٥٨هـ.

مذاهب وطرائق في تعليم اللغات، رتشاردز، جاك وروجرز، ثيودر، ترجمة محمود صيني وعبد الرحمن العبدان وعمر الصديق عبدالله. الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٠هـ.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، شرحه وقدم له: مفيد محمد قميحة، الطبعة الثانية، الجزء الأول، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م. المتوفى سنة ٣٤٦هـ.

المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، شرحه وضبطه وصححه: محمد أحمد جاد المولى وغيره، لا طبعة، الجزء الأول، بيروت: دار الجيل و دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لا تاريخ. المتوفى سنة ٩١١هـ.

المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي، شهاب الدين بن محمد، حققه وقابله على عدة نسخ وقدّم له: عبدالله أنيس الطباع، بيروت: دار القلم، ١٩٨١م. المتوفى سنة ٨٥٠هـ.

مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الثالثة، لا تاريخ. المتوفى سنة ٨٠٨هـ.

الموسوعة القرآنية الميسرة، الزحيلي، وهبة، وآخرون، الطبعة الثالثة، دمشق: دار الفكر؛ بيروت: دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٤.

النحو العربي والدرس الحديث: بحث في المنهج، الراجحي، عبده علي، لا طبعة، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٩م.

نظريات التعلم: دراسة مقارنة، غازدا، جورج وكورسيني، ريموند، ترجمة علي حسين حجاج وعطية محمود هنا، الكويت: عالم المعرفة، ١٤٠٤هـ.

النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية، العصيلي، عبدالعزيز بن ابراهيم، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مطابع التقنية للأوفست، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

نظرية التقدير عند النحاة العرب المسلمين وأثرها في نحاة الغرب المعاصرين تشومسكي مجدد النحو العربي: جاسم، جاسم علي و جاسم، زيدان علي مقال مخطوط.

نظرية علم اللغة التقابلي في التراث العربي، جاسم، جاسم على، و جاسم، زيدان علي، مجلة التراث العربي، العددان ٨٣ ٨٤، السنة الحادية والعشرون، أيلول ٢٠٠١م.

نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث: الموسى، نهاد، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لا طبعة،١٩٨٠م.

نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، تحقيق: مفيد قميحة و حسن نور الدين، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م. المتوفى سنة ٧٣٣هـ.

- Abu Deep, Kamal, Al-Jurjani's Theory of Poetic Imagery and its Background, Ph.D, Thesis, Oxford University, England, 1971.
- Chomsky, N. Syntactic Structures. The Hague: Mouton, 1957.
- Chomsky, N. "Review of B. F. Skinner's Verbal Behavior", Language, 35, 1959.

- Chomsky, N. Aspects of the theory of Syntcax, Cambridge, Mass.: The MIT Press, 1965.
- Chomsky, N. Language and Problem of Knowledge: The Mangua Lectures. Cambridge, Mass: The MIT Press, 1988.
- Foss, D. J. and hakes, D. Psycholinguistics: An Introduction to the Psychology of Language. New Jersey: Prentice-Hall Inc., 1978.
- Gleason, J. and Ratner, N. "An Introduction to Psycholinguistics: What do language Users Know". In J. Gleason and N. Ratner (Eds.), Psycholinguistics. 1993.
- Greene, J., Psycholinguistics Chomsky and Psychology, Britain: Richard Clay Ltd., 1973.
- Jassem Ali Jassem. Study on Second Language Learners of Arabic: An Error Analysis Approach. Kuala Lumpur: A.S.Noordeen, 2000.
- Langer, S., Philosophy in a New Key. New York: The New American Library, 1954.
- Richards, J.; Platt, J.; and Platt, H. Longman Dictionary of Language & Teaching and Applied Linguistics, 2nd edition, Essex, UK: Longman. 1992.
- Skinner, B. F. Verbal Behavior, New York: Appleton Century Crofts, 1957.
- Steinberg, D. An Introduction to Psycholinguistics, New York: Longman, 1993.